روائع العصور القديمة المتأخرة • طبعة مصوّرة

حياة القديس مارتينوس

De vita beati Martini

سولبيسيوس ساويروس



طبعة كاملة بالعربية المعاصرة، مع السياق التاريخي بقلم الراوي و14 رسمًا

المحتويات

مقدمة كلمة الراوي الافتتاحية: الرجل الذي يقف خلف الأسطورة 4

رسالة الإهداء رسالة المؤلف إلى صديقه ديزيديريوس عن حياة القديس مارتينوس 6

الفصل الأول لماذا تساوي حياة القداسة أكثر من شهرة هكتور أو سقراط 7

الفصل الثاني من بانونيا إلى إيطاليا: الصبي الذي هرب إلى الكنيسة واقتيد إلى الجيش مكبّلًا بالسلاسل 8

الفصل الثالث الرداء المشطور نصفين عند أبواب أميان ورؤيا المسيح 11

الفصل الرابع وجهًا لوجه مع يوليانوس في فورمس: «أنا جندي للمسيح؛ لا يحلّ لي أن أقاتل» 13

الفصل الخامس القديس هيلاريوس أسقف بواتييه، ووظيفة طارد الأرواح، وكمين اللصوص في جبال الألب 15

الفصل السادس اللقاء مع الشيطان على الطريق، والجلد العلني، والسمّ في جزيرة غالينارا 17

الفصل السابع دير Ligugé والمعجزة الأولى: الموعوظ الذي عاد إلى الحياة 18

الفصل الثامن عبد لوبيكينوس الشاب يُنقَذ من الموت 20

الفصل التاسع «الاختطاف» لجعله أسقفًا على تور وإذلال الأسقف ديفنسور 21

الفصل العاشر الأسقف الذي سكن كوخًا من خشب: تأسيس Marmoutier 23

الفصل الحادي عشر الشهيد المزيّف ينكشف: روح المجرم بجانب المذبح 25

الفصل الثاني عشر الجنازة الوثنية المتجمدة في وسط الحقول 26

الفصل الثالث عشر تحدّي الصنوبرة المقدسة: مقيّدًا تحت الشجرة الساقطة 27

الفصل الرابع عشر النار التي تراجعت عكس الريح والملاكان المسلّحان في ليفرو 29

الفصل الخامس عشر العنق المكشوف أمام السيف في أرض الإيدوبين 30

الفصل السادس عشر الفتاة المشلولة تُشفى في تربر بالزيت المبارَك 31

الفصل السابع عشر البروقنصل السابق تيترادیوس وأصابع مارتينوس في فم رجل ممسوس 32

الفصل الثامن عشر الشائعة الكاذبة عن غزو البرابرة، وقبلة الأبرص في باريس، وخيوط الثوب 34

الفصل التاسع عشر الرسالة التي شفت ابنة أربوريوس، وعين باولينوس النولي، والسقوط على الدرج 36

الفصل العشرون مأدبة الإمبراطور ماغنوس مكسيموس: الكأس تُناوَل للكاهن قبل الإمبراطور 37

الفصل الحادي والعشرون أحاديث مع الملائكة والشيطان بقرن الثور الملطّخ بالدم 39

الفصل الثاني والعشرون أقنعة جوبيتر وميركوريوس وفينوس — ووعد الغفران للشيطان نفسه 41

الفصل الثالث والعشرون قصة كلاروس، والنبي الكاذب أناتوليوس، والثوب الذي تبخّر في الهواء 42

الفصل الرابع والعشرون المسحاء الكذبة في هسبانيا والشيطان في لباس إمبراطور: «لن أعترف بالمسيح من دون علامات الصليب» 44

الفصل الخامس والعشرون زيارة المؤلف للقديس مارتينوس: الأسقف الذي غسل قدمَي كاتب سيرته 46

الفصل السادس والعشرون الصورة الداخلية: سندان الحدّاد وصبره على كهنته أنفسهم 48

الفصل السابع والعشرون الخاتمة: وجه مضيء والجواب على الأساقفة الحاسدين 49

خاتمة الراوي ما حدث بعد ذلك: موت القديس مارتينوس وأصل الحادي عشر من نوفمبر 50

عن هذه الطبعة 52

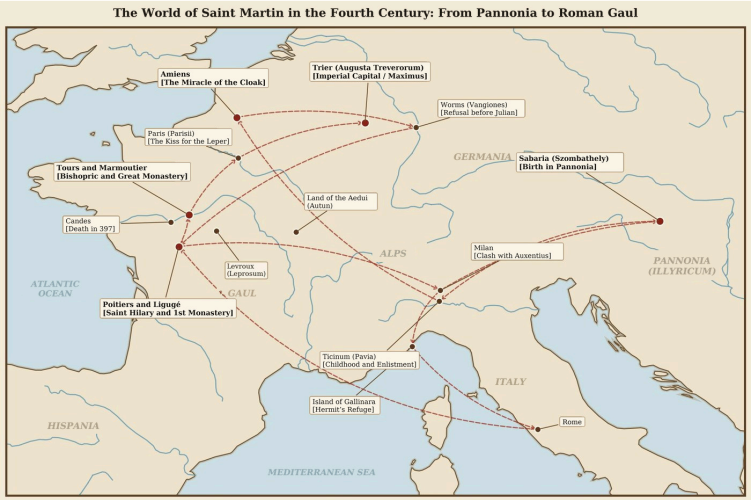
مقدمة

كلمة الراوي الافتتاحية: الرجل الذي يقف خلف الأسطورة

في أنحاء كثيرة من أوروبا، ما إن يحلّ الحادي عشر من نوفمبر حتى يعود اسم القديس مارتينوس إلى أحاديث الناس اليومية، حاملًا معه رائحة الكستناء المشوية، والنبيذ الجديد، ومواكب الفوانيس، وتلك الأيام الدافئة المشمسة التي تأتي في غير أوانها ويسمّيها كثير من الشعوب «صيف القديس مارتينوس». ويكاد الجميع يعرفون صورة الجندي الروماني الشاب على صهوة جواده، وهو يشطر رداءه نصفين بسيفه في يوم شتوي قارس ليدفئ متسولًا يرتجف من البرد.

لكنّ ما يعرفه القليلون هو أن القديس مارتينوس أسقف تور (نحو 316/336 – 397 م) ليس شخصية غائمة خرجت من أساطير العصور الوسطى. بل على العكس: إنه من أكثر شخصيات أواخر الإمبراطورية الرومانية توثيقًا. فسيرته — *حياة القديس مارتينوس* (*De vita beati Martini*) — كُتبت وهو ما زال على قيد الحياة، بقلم رجل عرفه شخصيًا، وأكل على مائدته، وتحدث معه طويلًا: **سولبيسيوس ساويروس**.

كان سولبيسيوس ساويروس (نحو 363 – نحو 425) محاميًا لامعًا وخطيبًا مشهورًا وأرستقراطيًا من أكيتانيا، في جنوب غرب ما يُعرف اليوم بفرنسا. وحين قرر أن يكتب هذا الكتاب، نحو سنة 396، كانت الإمبراطورية الرومانية الغربية تمرّ بتحوّل عميق. فالمسيحية لم تعد ديانة مضطهدة، بل صارت الإيمان الرسمي للأباطرة؛ وفي المدن كان يتكاثر الأساقفة أصحاب النفوذ، يلبسون الحرير ويعتادون تناول العشاء في البلاط، أما في قرى الريف (*pagi*) فكان أهل الأرياف يواصلون تكريم الأشجار المقدسة والآلهة الكلتية-الرومانية القديمة.



خريطة تاريخية: عالم القديس مارتينوس في القرن الرابع — من مسقط رأسه في سابارِيا (بانونيا) وشبابه العسكري في تيكينوم وأميان وفورمس، إلى ديرَي Ligugé و Marmoutier وأبرشية تور.

وفي وسط ذلك العالم المتغيّر، كان مارتينوس فضيحة حقيقية في نظر النخب: ضابط سابق في الحرس الإمبراطوري رفض أن يقاتل، وجهًا لوجه أمام الإمبراطور المقبل يوليانوس؛ رجل احتال عليه الشعب ليحملوه حملًا ويجعلوه أسقفًا على تور، ومع ذلك لم يقبل قط أن يسكن قصرًا أسقفيًا، مفضّلًا كوخًا من خشب وثوبًا خشنًا من وبر الجمال. كان رجلًا يقبّل البُرص عند أبواب باريس، ويواجه الأباطرة في تريز، ويفضح الدجّالين، حتى إنه صدم أشدّ اللاهوتيين تزمّتًا حين قال إن الشيطان نفسه كان الله سيغفر له لو كان قادرًا على التوبة.

في هذه الطبعة أُعيدت كتابة النص الكامل لسولبيسيوس ساويروس **بلغة عربية معاصرة واضحة وسلسة**، مع الحفاظ بأمانة على كل حادثة وكل تفصيل في الأصل اللاتيني. وفي نهاية كل فصل، أنضمّ إليك بصفتي راويًا لأشرح العادات العسكرية الرومانية، وجغرافية تلك الحقبة، والخلفية السياسية، وثقافة القرن الرابع — تفاصيل كانت بديهية لقرّاء زمن سولبيسيوس، لكنها تساعدنا اليوم كثيرًا على إدراك القوة الاستثنائية لهذه القصة.

رسالة الإهداء

رسالة المؤلف إلى صديقه ديزيديريوس عن حياة القديس مارتينوس

من ساويروس إلى أخيه العزيز ديزيديريوس، أحرّ التحيات.

أخي وصديقي الكبير: كنت قد عزمت على أن أُبقي في الدُّرج، حبيسًا بين جدران بيتي الأربعة، هذا الكتاب الصغير الذي كتبته عن حياة القديس مارتينوس. فأنا بطبعي قليل الثقة بنفسي، وأردت أن أجنّب نفسي انتقاد الناس. كنت أخشى — وما زلت أظن أن هذا ما سيحدث — أن تُنفّر كتابتي غير المصقولة القرّاء، وأن يلومني الجميع على جرأتي في تناول موضوع كان يستحق كتّابًا من موهبة أخرى تمامًا. لكنك ألححت عليّ إلحاحًا لم أستطع معه أن أقول لا. ثم ما الذي لا أفعله من أجل صداقتنا، ولو خاطرت بسمعتي؟

وهكذا سلّمتك هذا الكتاب الصغير، واثقًا بوعدك ألّا تُطلع عليه أحدًا غيرك. ومع ذلك أعترف بخوفي من أن تكون أنت من يفتح له الباب إلى العالم — ومتى خرج، فلا سبيل إلى استرجاعه.

فإن حدث ذلك ورأيت أن بعض الناس بدأوا يقرأونه، فأرجوك أن تطلب منهم أن يهتموا بالأحداث أكثر من الأسلوب، وأن يصبروا إن آذت آذانهم جملة قليلة الأناقة؛ فملكوت الله في النهاية لا يقوم على فن الكلام الجميل بل على الإيمان. وليتذكروا أيضًا أن خلاص العالم لم يبشّر به خطباء كبار بل صيادو سمك — مع أن الله، لو رأى في ذلك نفعًا، كان قادرًا تمامًا على أن يفعله بواسطة الخطباء أيضًا.

والحقيقة أنني حين قررت أن أبدأ العمل، وقد شعرت بأن ترك فضائل رجل استثنائي كهذا تسقط في النسيان أمر لا يُغتفر، وعدت نفسي ألّا أخجل إن تسلّل إلى النص خطأ نحوي. فأنا لم أكن يومًا خبيرًا كبيرًا في فنّ الأدب، وحتى القليل الذي درسته في ما مضى نسيته لقلة الممارسة بعد كل هذه السنين.

ومع ذلك، ولتعفيني من عناء تبرير نفسي، إن أردت فعلًا أن تنشر الكتاب فامحُ اسمي. يكفي أن تكشط التوقيع عن الورقة الأولى فتصمت الصفحة — أو بالأحرى، وهذا كل ما يهم: ليتكلم الكتاب عن القصة التي يرويها فقط، وليسكت عن اسم الرجل الذي كتبه.

> **سياق الراوي: التواضع المصطنع لمحامٍ كبير والكتب «المكشوطة»**
>
> لا ننخدع بالتواضع الأدبي الذي يُبديه سولبيسيوس ساويروس! فحين يعتذر عن «كتابته غير المصقولة» وعن «أخطاء نحوية» محتملة (*soloecismi*)، فإنه يستخدم أسلوبًا كلاسيكيًا في الخطابة الرومانية يسمى *captatio benevolentiae* — أي فنّ كسب ودّ القارئ بالتظاهر بالتواضع. والواقع أن سولبيسيوس كان من أكثر رجال القانون

والمؤلفين ثقافةً في بلاد الغال الرومانية، حتى إن إنسانيي عصر النهضة لقّبوه بـ«سالوستيوس المسيحي» لجودة لغته اللاتينية.

لكن خلف هذه الكلمات كان يدور جدل حقيقي جدًا: ففي أواخر القرن الرابع كانت النخبة الرومانية التي تخرّجت في المدارس الكلاسيكية تنظر باستعلاء إلى نصوص الكتاب المقدس، لأنها مكتوبة بلاتينية بسيطة ومباشرة، بعيدة كل البعد عن نثر شيشرون المتأنق. وحين يذكّر سولبيسيوس بأن الإنجيل بشّر به «لا خطباء كبار بل صيادو سمك»، فهو يدافع عن أن الحقيقة التاريخية والروحية أهم بكثير من البريق الأدبي.

ولاحظ أيضًا التفصيل العملي في ختام الرسالة: «*يكفي أن تكشط التوقيع عن الورقة الأولى*» (*titulum fronti erade*). ففي العصور القديمة المتأخرة لم تكن المطبعة قد وُجدت بعد؛ وكان نشر كتاب يعني إرسال مخطوطة من الرَّقّ إلى صديق واسع العلاقات — وهو هنا ديزيديريوس، أرستقراطي مسيحي آخر من أكيتانيا — لكي يصنع نُسّاخ بيته نسخًا جديدة. ولأن الرَّقّ (جلد حيوان معالَج) كان غاليًا ومتينًا جدًا، كان محو اسم المؤلف يتم حرفيًا بكشط الحبر الجاف بشفرة أو بحجر خفّاف. وبالطبع لم يكشط ديزيديريوس أي اسم: بل نشر الكتاب في كل مكان، فصار العمل أول كتاب واسع الرواج في الأدب المسيحي الغربي!

الفصل الأول

لماذا تساوي حياة القداسة أكثر من شهرة هكتور أو سقراط

كثير من الناس، وقد استحوذت عليهم الدراسات الدنيوية والرغبة في الجاه، أقنعوا أنفسهم بأنهم يستطيعون تخليد أسمائهم بكتابة سير المشاهير. صحيح أن هذا الجهد لم يمنحهم الخلود، لكنه أعطاهم شيئًا مما كانوا يسعون إليه: فمن جهة تركوا اسمهم مذكورًا في العالم، مع قلة قيمة ذلك؛ ومن جهة أخرى، حين رووا حياة رجال عظماء، أيقظوا في قرّائهم رغبة قوية في الاقتداء بتلك الأمثلة. غير أن شيئًا من هذا كله لم ينفع في بلوغ الحياة السعيدة الأبدية حقًا.

فماذا أفادتهم في النهاية شهرة كتبهم، وهي محكوم عليها بأن تزول مع هذا العالم؟ وماذا ربحت الأجيال اللاحقة من القراءة عن معارك هكتور أو مناقشات سقراط الفلسفية؟ إن الرغبة في تقليدهما حماقة كافية؛ وعدم مقاومة تلك الأفكار بحزم جنون محض. فلأنهم قاسوا حياة الإنسان بما يُصنع هنا على الأرض فقط، وضعوا رجاءهم في الأساطير وسلّموا نفوسهم إلى القبر. ظنّوا أنه يكفي أن يبقوا أحياء في ذاكرة الناس، مع أن الغاية الحقيقية للإنسان يجب أن تكون طلب الحياة الأبدية لا الشهرة الأبدية — وهذه لا تُنال بالكتابة ولا بالحرب ولا بالتفلسف، بل بالعيش باستقامة وصلاح وأمانة لله.

وهذا الخطأ، الذي تناقلته الأجيال عبر الكتب، كان من القوة بحيث دفع عددًا كبيرًا من الناس إلى تقليد تلك الفلسفة الفارغة تارة، وذلك المثال الزائف للشجاعة الحربية تارة أخرى. ولهذا السبب بالذات، أرى أن من المفيد جدًا كتابة سيرة رجل قديس حقًا، يكون مصدر إلهام للآخرين في المستقبل. ومن يدري، فلعل كثيرين حين يقرأونها يشعرون بأنهم مدعوون إلى الحكمة الحقيقية، وإلى خدمة الله، وإلى حياة مستقيمة. وأنا في ذلك أفكر أيضًا في خيري أنا: فلا أنتظر أن أشتهر بين الناس، بل أن أنال من الله مكافأة تدوم. فإن كنت أنا نفسي لم أتمكن من العيش بطريقة تجعلني قدوة، فقد فعلت على الأقل ما في وسعي لأعرّف بمن يستحق فعلًا أن يُقتدى به.

سأبدأ إذًا برواية حياة القديس مارتينوس، مبيّنًا مَن كان قبل أن يصير أسقفًا وبعد أن تولّى أبرشيته. وبالطبع لم أتمكن من معرفة كل ما فعله: فالأحداث التي لم يشهدها أحد غيره تبقى سرًّا، لأن مارتينوس لم يطلب المديح قط، ولو كان الأمر بيده وحده لفضّل أن يخفي كل أعماله الصالحة. بل إنني تركت الكثير حتى مما وصل إلى مسامعي، إذ رأيت أنه يكفي اختيار أبرز المواقف — وذلك أيضًا حتى لا أُتعب القارئ بكثرة الوقائع. ولا أطلب من القرّاء إلا أن يثقوا بما هو مكتوب هنا، وأن يتأكدوا أنني لم أضع على الورق شيئًا من دون أن أتحقق منه أولًا بعناية شديدة. ولو ساورني أي شك، لفضّلت الصمت على رواية الأكاذيب.

سياق الراوي: هكتور وسقراط وابتكار نموذج جديد للبطل

في هذا الفصل الافتتاحي يخاطب سولبيسيوس ساويروس مباشرةً جمهور الإمبراطورية الرومانية المثقف. ففي المدرسة الرومانية في القرن الرابع كان التعليم كله يدور حول مرجعين كبيرين: ملحمة هوميروس الحربية — ويمثّلها **هكتور**، البطل الطروادي في *الإلياذة* — والتقليد الفلسفي اليوناني — ويمثّله **سقراط**.

وحين يضعهما سولبيسيوس في مقابل مارتينوس، فإنه يُطلق ثورة ثقافية صغيرة: إنه يقترح أن يحلّ محلّ بطل الحرب والفيلسوف القديم نموذج إنساني جديد — رجل الإيمان الذي يتجنّد في *coelestis militia*، أي «الخدمة العسكرية السماوية». ولاحِظ أيضًا التعهّد في نهاية الفصل: فسولبيسيوس، بصفته محاميًا سابقًا اعتاد إثبات الوقائع في المحكمة، يضمن أنه لم يُدرج إلا روايات جمعها من شهود عيان موثوقين أو سمعها من فم مارتينوس نفسه.

الفصل الثاني

من بانونيا إلى إيطاليا: الصبي الذي هرب إلى الكنيسة واقتيد إلى الجيش

مكبّلًا بالسلاسل

وُلد مارتينوس في ساباريا، وهي مدينة في مقاطعة بانونيا، لكنه نشأ في إيطاليا، في تيكينوم. كانت عائلته ذات مكانة اجتماعية جيدة بمقاييس ذلك الزمن، لكن والديه كانا وثنيين. وكان أبوه قد بدأ حياته العسكرية جنديًا بسيطًا ثم ارتقى لاحقًا إلى رتبة تريبون عسكري.

وفي شبابه سلك مارتينوس نفسه طريق السلاح، فخدم في فرسان الحرس الإمبراطوري في عهد الإمبراطور قسطنطيوس ثم تحت قيادة القيصر يوليانوس. لكن ذلك لم يكن باختياره: فمنذ نعومة أظفاره لم يكن ذلك الصبي الاستثنائي يفكر إلا في خدمة الله. كان في العاشرة من عمره فقط حين هرب، رغمًا عن والديه، إلى كنيسة وطلب أن يُقبل بين الموعوظين. وبعد وقت قصير، وقد اتجه بكليّته إلى أمور الله على نحو يثير الدهشة في مثل سنّه، حلم وهو في الثانية عشرة بأن يذهب ليعيش ناسكًا في الصحراء — وكان سيفعل ذلك لولا أنه كان ما زال صغيرًا جدًا وضعيف البنية. ومع ذلك، ولأن فكره كان دائمًا عند الأديرة أو الكنيسة، كان يحمل في قلبه منذ طفولته ما سيحققه لاحقًا بكل ذلك التفاني.

في تلك الأثناء أصدر الأباطرة مرسومًا يُلزم أبناء المحاربين القدامى بالالتحاق بالجيش. فقام والد مارتينوس نفسه — وهو الذي لم يكن يطيق ميول ابنه الدينية — بالوشاية به وتسليمه إلى السلطات. وهكذا وجد مارتينوس نفسه، وهو في الخامسة عشرة فقط، مقبوضًا عليه ومكبّلًا بالسلاسل ومجبرًا على أداء القسم العسكري. لم يأخذ معه سوى عبد واحد لخدمته، لكنه قلب الأدوار المعتادة رأسًا على عقب: فالسيد هو الذي كان يخدم الخادم. وفي أغلب الأحيان كان مارتينوس نفسه هو من يخلع حذاء الرجل وينظفه، وكان الاثنان يجلسان ليأكلا معًا إلى المائدة نفسها، وكان مارتينوس في معظم الأوقات هو من يقدّم الطعام.



في تيكينوم (بافيا)، الجندي الشاب مارتينوس، وهو في الخامسة عشرة فقط، يقلب التراتبية الرومانية رأسًا على عقب ويجثو في الخيمة ليخلع حذاء خادمه العسكري وينظفه.

قضى في الجيش نحو ثلاث سنوات قبل أن يعتمد، لكنه ظل دائمًا بعيدًا كل البعد عن الرذائل التي يقع فيها الجنود عادة. كان يعامل رفاق السلاح بلطف عظيم وكرم غير مألوف، وكان له من الصبر والتواضع ما يبدو فوق طاقة البشر. أما بساطة عيشه فلا حاجة حتى إلى مدحها: فقد كان يحيا حياة شديدة التقشف، حتى إنه كان يبدو، منذ ذلك الحين، راهبًا أكثر منه جنديًا. وبهذا الأسلوب في الحياة كسب قلوب رفاقه الجنود حتى صاروا جميعًا يكنّون له احترامًا ومودة كبيرين.

ومع أنه لم يكن قد نال المعمودية بعد، كان يعيش عمليًا كمسيحي حقيقي بالأعمال التي يقوم بها: كان يساعد من هم في ضيق، ويُنجد أشد الناس بؤسًا، ويُطعم الجياع، ويكسو من لا يجدون ما يلبسونه. ومن راتبه العسكري لم يكن يحتفظ لنفسه بشيء سوى ما يلزمه ليأكل كل يوم؛ فمنذ ذلك الحين كان يأخذ كلام الإنجيل على محمل الجد ولا يهتم للغد.

سياق الراوي: قوات النخبة والتجنيد الإجباري والضابط الذي كان ينظف حذاء عبده

هنا عدة تفاصيل تاريخية مدهشة عن القرن الرابع:

1. **الجغرافيا: ساباريا**، حيث وُلد مارتينوس (سنة 316 بحسب التأريخ التقليدي، أو نحو سنة 336 بحسب دراسات أحدث)، هي مدينة سومباتهي الحالية في المجر، وكانت جزءًا من مقاطعة بانونيا الرومانية. أما **تيكينوم**، حيث نشأ، فهي اليوم **بافيا** في شمال إيطاليا، وكانت يومها مدينة عسكرية مهمة.

2. **الأب التريبون والوشاية داخل البيت:** كان والد مارتينوس قد شقّ طريقه صعودًا في الجيش الروماني: بدأ جنديًا عاديًا (*miles*) ووصل إلى رتبة **تريبون عسكري** (*tribunus militum*)، وهو ضابط كبير له منزلة طبقة الفرسان ودخل جيد. وفي أواخر الإمبراطورية الرومانية، ولأن عدد الرجال لم يكن يكفي قط للدفاع عن الحدود، وضعت الدولة قوانين وراثية تُلزم أبناء المحاربين القدامى بسلوك طريق السلاح. وبالنسبة إلى ضابط وثني عجوز، مخلص لآلهة الحرب، كانت رؤية ابنه ذي الخمسة عشر عامًا يريد أن يصير راهبًا مسيحيًا عارًا لا يُحتمل — ولهذا كان الأب نفسه هو من سلّمه إلى المجنّدين ليُساق مقيّدًا بالأغلال!

3. **الحرس البلاطي (*scholares alae*):** لم ينتهِ الأمر بمارتينوس في وحدة مشاة عادية، بل في *Scholae Palatinae*، فرسان النخبة الذين كانوا يشكّلون الحرس الشخصي للإمبراطور (**قسطنطيوس الثاني**، ابن قسطنطين) وللقيصر (**يوليانوس**). كانت قوات مرموقة، جيدة الرواتب، ويحق لكل فرد فيها خادم خاص.

4. **ما معنى «موعوظ»؟** في القرن الرابع كان من النادر تعميد الأطفال الرضّع. فمن أراد أن يصير مسيحيًا كان يدخل أولًا في *مرحلة الموعوظين* — مرحلة تدوم عدة سنوات من الإعداد الروحي والاختبار الأخلاقي.

5. **قلب الأدوار مع العبد:** في المجتمع الروماني كان خلع الأحذية العسكرية الثقيلة (*caligae* أو *calciamenta*) وكشط الوحل عنها أحطّ مهام العبيد. وأن يُرى ضابط شاب من الحرس الإمبراطوري ينظف حذاء خادمه ويخدمه على المائدة كان أمرًا لا يمكن تصوّره إطلاقًا في عقلية ذلك الزمن.

الفصل الثالث

الرداء المشطور نصفين عند أبواب أميان ورؤيا المسيح

ذات مرة، في وقت لم يكن قد بقي معه شيء سوى سلاحه ورداء عسكري بسيط، وفي عزّ شتاء أقسى كثيرًا من المعتاد — ببرد بلغ من الشدة أن كثيرين كانوا يموتون متجمدين في الشوارع — صادف مارتينوس رجلًا فقيرًا، عاريًا تمامًا، عند أبواب مدينة أميان. كان المتسول يرجو المارّة أن يشفقوا عليه، لكن الجميع كانوا يمضون في طريقهم من دون أن يُعيروه أدنى اهتمام. ففهم ذلك الشاب الممتلئ إيمانًا في الحال أنه ما دام لا أحد غيره يُنجد ذلك البائس، فإن الله قد تركه في عهدته هو.

لكن ماذا عساه يفعل؟ لم يبقَ له سوى الرداء العسكري الذي يلبسه، لأنه كان قد أعطى كل شيء آخر لمحتاجين غيره. فاستلّ السيف الذي يتقلّده على خصره، وشطر الرداء نصفين تمامًا، وأعطى نصفًا للفقير، وأعاد القطعة الباقية على كتفيه. ومن حوله انفجر بعض من كانوا يشاهدون المشهد ضاحكين، إذ

وجدوا منظر جندي بنصف رداء مبتور منظرًا مضحكًا؛ لكن كثيرين غيرهم، ممن كانوا أيقظ ضميرًا، شعروا بخجل عميق لأنهم لم يفعلوا شيئًا مماثلًا، مع أنهم كانوا يملكون أكثر مما يكفي لكسوة ذلك الرجل من دون أن يبردوا هم.



عند أبواب أميان، في شتاء قارس، يشطر مارتينوس بسيفه رداء الحرس البلاطي الأبيض والقرمزي نصفين ليدفئ فقيرًا عاريًا في الثلج.

وفي الليلة التالية، بعد أن نام، رأى مارتينوس المسيح في الحلم لابسًا نصف الرداء نفسه الذي أعطاه للمتسول. وأحسّ بأنه يُطلب منه أن يتأمل الرب جيدًا وأن يتعرّف إلى الثوب الذي وهبه. وبعد ذلك مباشرة سمع يسوع يقول بصوت واضح لجمع الملائكة المحيطين به: «مارتينوس، وهو ما زال موعوظًا فقط، كساني بهذا الرداء!»

ووفاءً للكلام الذي قاله هو نفسه في الإنجيل — «*كل مرة عملتم هذا لواحد من إخوتي هؤلاء الصغار، فلي عملتموه*» — كان الرب يُظهر بهذه الطريقة أنه هو نفسه من كُسي في شخص ذلك الفقير؛ ولكي يؤكد قيمة تلك البادرة، اختار أن يظهر لابسًا قطعة القماش ذاتها التي نالها المتسول. ومع هذه الرؤيا لم يمتلئ مارتينوس غرورًا. بل على العكس: إذ رأى في ذلك كله صلاح الله، سارع إلى المعمودية ما إن بلغ الثامنة عشرة. ومع ذلك لم يترك الجيش في الحال، لأنه نزل عند توسلات تريبونه الملحّة، وكان صديقًا مقرّبًا له ورفيقه في الخيمة؛ فقد وعده هذا القائد بأنه هو أيضًا سيترك حياة العالم حالما تنتهي مدة خدمته العسكرية. وتمسكًا بذلك الوعد بقي مارتينوس في الجيش نحو سنتين أخريين بعد معموديته، وإن لم يكن حينها جنديًا إلا بالاسم.

سياق الراوي: الرداء العسكري، وأصل كلمة «chapel»، وصيف القديس مارتينوس

قرأنا للتوّ أشهر حادثة في حياة القديس مارتينوس، وقد جرت عند أبواب *Samarobriva Ambianorum* — مدينة **أميان** الحالية في شمال فرنسا — في شتاء قارس من ثلاثينيات أو خمسينيات القرن الرابع. وهناك ثلاث معلومات طريفة تجعل هذا المشهد أكثر حيوية:

1. **لماذا شطر مارتينوس الرداء نصفين بدل أن يعطيه كله؟** في الجيش الإمبراطوري الروماني كان الرداء العسكري الأبيض أو القرمزي (*chlamys*، وكثيرًا ما كان يُبطَّن بجلد الغنم في الشتاء) جزءًا من الزي النظامي: نصفه ملك للدولة الرومانية ونصفه الآخر يدفع الجندي ثمنه. وإذا حضر جندي إلى العرض العسكري بلا رداء على الإطلاق، عوقب على إضاعة العتاد! وحين شطره مارتينوس نصفين بسيفه، أعطى كل ما هو ملكه واحتفظ بالجزء الإلزامي — وصار منظره مضحكًا (*truncatus habitu*) إلى حد أن المارّة ضحكوا.

2. **كيف نشأت من نصف رداء مارتينوس كلمتا «chapel» و«chaplain»:** بعد قرون صار نصف رداء القديس مارتينوس هذا (وكان يسمى في اللاتينية المتأخرة *cappa*، أي «الرداء الصغير») أثمن ذخيرة عند ملوك الفرنجة، حتى إنهم كانوا يحملونه معهم إلى المعارك. والمزار الصغير الذي كانوا يحفظون فيه *cappa* القديس مارتينوس صار يسمى *capella* («مكان الرداء الصغير»)، والكهنة المكلّفون بالعناية به هم الـ*capellani*. ومن هنا جاءت مباشرةً الكلمتان الإنجليزيتان **chapel** (المُصلّى أو الكنيسة الصغيرة) و**chaplain** (الكاهن المرشد)، ومثيلاتهما في كثير من اللغات الأوروبية!

3. **وماذا عن «صيف القديس مارتينوس»؟** كما ترى من النص الأصلي لسولبيسيوس ساويروس، لم تكن في القرن الرابع أي أسطورة عن شمس تخترق الغيوم في تلك اللحظة. فهذا التقليد الشعبي نشأ بعد قرون، حين صار عيد جنازة القديس مارتينوس (في **11 نوفمبر**) يتزامن مع حالة الطقس المعتادة في منتصف نوفمبر — سلسلة أيام من الشمس الدافئة والسماء الصافية قبل الشتاء — فاقترن إلى الأبد الدفء الإنساني في بادرة الرداء بشمس الخريف.

الفصل الرابع

وجهًا لوجه مع يوليانوس في فورمس: «أنا جندي للمسيح؛ لا يحلّ لي أن أقاتل»

في تلك الأثناء اجتاحت الشعوب البربرية بلاد الغال. فجمع القيصر يوليانوس جيشه قرب مدينة الفانجيونيين وبدأ يوزّع على الجنود منحة مالية خاصة. وكما جرت العادة، كان الرجال يُنادَون واحدًا واحدًا بأسمائهم، إلى أن جاء دور مارتينوس.

وأدرك مارتينوس أن هذه هي اللحظة المناسبة ليطلب تسريحه من الجيش — خصوصًا أنه رأى من غير الأمانة أن يقبل المال وهو يعلم أنه لن يخوض القتال — فخاطب يوليانوس مباشرة: «حتى اليوم كنت في خدمتك؛ فدعني الآن أخدم الله. ليأخذ منحتك من هو ذاهب إلى المعركة؛ أما أنا فجندي للمسيح، لا يحلّ لي أن أقاتل.»



في فورمس (356 م)، أمام المنصة العسكرية وصناديق الذهب التي للقيصر يوليانوس، يرفض مارتينوس منحة الحملة: «حتى اليوم كنت في خدمتك؛ فدعني الآن أخدم الله. أنا جندي للمسيح، لا يحلّ لي أن أقاتل.»

فلما سمع الطاغية ذلك استشاط غضبًا ورماه بأنه لا يريد ترك الجيش عن إيمان، بل خوفًا من المعركة المقررة في اليوم التالي. لكن مارتينوس لم يسمح لأحد بأن يُرهبه — بل ازداد ثباتًا أمام تلك التهديدات — وأجابه: «إن كنت تظن أن هذا جبن لا إيمان، فسأقف غدًا أعزل في الصف الأول، أمام قواتنا؛ وباسم الرب يسوع، بلا ترس ولا خوذة، لا تحميني سوى إشارة الصليب، سأتقدم بلا خوف في وسط صفوف العدو.»

فأمر يوليانوس بحبسه فورًا، ليُجبره على الوفاء بكلمته في اليوم التالي، في مواجهة البرابرة وهو أعزل. لكن مع أول الصباح أرسل الأعداء مبعوثين يطلبون السلام، مستسلمين بلا شروط ومسلّمين كل ما يملكون.

فمن يستطيع، والحال هذه، أن يشكّ في أن النصر كان بفضل مارتينوس، وقد أعفاه الله بهذه الطريقة من أن يُرمى أعزل في خط المواجهة؟ بالطبع كان الرب، بصلاحه، قادرًا تمامًا على أن يحفظ جنديّه سالمًا

معافى وسط سيوف العدو ورماحه؛ لكنه اختار أن يمنع المعركة نفسها، حتى لا تضطر عينا مارتينوس حتى إلى مشاهدة موت رجال آخرين. فأيّ نصر آخر كان المسيح سيمنحه لجنديّه غير هذا: أن يهزم العدو من دون أن تُسفك قطرة دم ومن دون أن يموت أحد؟

سياق الراوي: منحة الذهب، ويوليانوس الجاحد، وواحد من أوائل المستنكفين ضميريًا

نحن في سنة **356 م**، في *Borbetomagus*، مدينة شعب الفانجيونيين — وهي اليوم **فورمس**، على ضفاف نهر الراين في ألمانيا. كانت قبائل جرمانية (الألامان والفرنجة) قد عبرت الراين ونهبت عدة مدن في بلاد الغال.

وعلى رأس القوات الرومانية يقف **القيصر يوليانوس**، ابن أخي قسطنطين، الذي سيصير بعد سنوات قليلة إمبراطورًا ويدخل التاريخ باسم **يوليانوس الجاحد** (361–363)، لأنه حاول إعادة الوثنية إلى الإمبراطورية الرومانية وتجريد المسيحيين من امتيازاتهم — ولهذا يسمّيه سولبيسيوس بقسوة «الطاغية» (*tyrannus*).

ولكي نقدّر شجاعة مارتينوس، يحسن أن نفهم ما كانت هذه المنحة العسكرية (*donativum*): فإضافةً إلى الراتب العادي (*stipendium*)، كان القائد عشية حملة مهمة يسلّم كل جندي بيده مبلغًا سخيًا من القطع الذهبية. وكان قبول الـ*donativum* بمثابة تجديد لعهد الشرف بالقتال حتى الموت في المعركة المقبلة. ولو أخذ مارتينوس الذهب ثم رفض أن يحمل سيفه، لأُعدم بتهمة الفرار والسرقة؛ لكنه حين رفض المال علنًا، والجيش كله مصطفّ في العرض، تحدّى سلطة يوليانوس جهارًا، في واحدة من أشهر حالات الاستنكاف الضميري في العصور القديمة.

الفصل الخامس

القديس هيلاريوس أسقف بواتييه، ووظيفة طارد الأرواح، وكمين اللصوص في جبال الألب

ما إن ترك مارتينوس الحياة العسكرية حتى ذهب يبحث عن القديس هيلاريوس، أسقف بواتييه، وهو رجل كان الجميع في ذلك الوقت يُعجبون بإيمانه وحكمته الدينية، وأقام عنده مدة. أراد هيلاريوس أن يُبقيه قريبًا منه وأن يضمّه إلى إكليروس الأبرشية بسيامته شماسًا. لكن مارتينوس رفض مرة بعد مرة، مصرًّا على أنه غير أهل لوظيفة عظيمة كهذه. وهيلاريوس، وكان رجلًا نافذ البصيرة، رأى أن لإقناعه طريقة واحدة فقط: أن يعطيه دورًا متواضعًا إلى حد أنه يكاد يبدو تنزيلًا في الرتبة. فاقترح عليه أن يصير طاردًا للأرواح؛ وهذه المرة قبل مارتينوس، حتى لا يوحي بأنه يحتقر المنصب لشدة تواضعه.

وبعد وقت قصير شعر بأنه يُنبَّه في حلم إلى أن عليه أن يذهب لزيارة وطنه ووالديه، وكانا ما زالا متعلقين بالوثنية، ليحاول مساعدتهما على بلوغ الإيمان. فانطلق بإذن من القديس هيلاريوس، الذي لم يدعه يذهب إلا بعد أن انتزع منه، بالتوسلات والدموع، وعدًا بأن يعود. ويُروى أن مارتينوس سلك الطريق مثقل القلب، منبّهًا رفاقه إلى أنه سيلاقي مشقات كثيرة — وهو ما أكدته الرحلة سريعًا.

ففي البداية، وهو يسلك بعض الطرق المختصرة الموحشة في عبور جبال الألب، وقع في كمين لقطّاع طرق. رفع أحدهم فأسه فعلًا ليشقّ رأسه، لكن لصًّا آخر أمسك ذراعه في اللحظة الأخيرة. ومع ذلك قيّدوا يديه خلف ظهره، وسلبوه ما كان يحمله، وتركوه في عهدة أحد رجال العصابة. فاقتاده هذا إلى مكان منعزل وأخذ يسأله من يكون. أجاب مارتينوس بأنه مسيحي. فسأله اللص هل هو خائف. فأكد له مارتينوس بكل هدوء أنه لم يشعر في حياته قط بمثل هذا الأمان، لأنه يعلم أن حماية الله لا تخيب أبدًا، وخصوصًا في لحظات الخطر الأشد؛ وأضاف أنه يشفق بالأحرى عليه هو، لأنه بتورطه في حياة الجريمة يحرم نفسه من رحمة المسيح.



في شِعاب جبال الألب، ويداه مقيّدتان خلف ظهره، يحدّث مارتينوس بهدوء عن الإنجيل اللصَّ الذي يحرسه والفأس في يده، وينتهي به الأمر إلى هدايته.

وهناك في الحال بدأ يشرح له الإنجيل ويحدّثه عن كلمة الله. ولا حاجة إلى إطالة القصة: فقد آمن اللص بما سمعه، ورافق مارتينوس حتى أعاده سالمًا إلى الطريق الرئيسي، وودّعه طالبًا منه أن يصلّي من أجله. وعُرف لاحقًا أن هذا الرجل غيّر حياته تمامًا ودخل الحياة الرهبانية — بل يقال إن هذه الحادثة كلها وصلت إلينا من فمه هو.

سياق الراوي: دهاء القديس هيلاريوس ولماذا كان «طارد الأرواح» منصبًا متواضعًا

كان **القديس هيلاريوس أسقف بواتييه** (نحو 315–367) المرجع الفكري الأكبر للكنيسة في بلاد الغال — لاهوتيًا فذًّا والمعلّم الروحي الحقيقي لمارتينوس.

في هذا الفصل تفصيل يحيّر عادةً كل من يشاهد أفلام الرعب اليوم: لماذا رفض مارتينوس أن يكون **شماسًا** لأنه رأى نفسه غير أهل، لكنه قبل أن يكون **طاردًا للأرواح** لأنه دور متواضع؟ في كنيسة القرن الرابع كان **الشمامسة** هم اليد اليمنى للأسقف: يديرون حسابات الأبرشية، وينظمون إعانة الفقراء، ولهم وزن اجتماعي هائل. أما **طارد الأرواح** فكان ينتمي إلى ما يسمى «الدرجات الصغرى»: مهمة خفيّة وتابعة، مكرّسة لمرافقة الموعوظين، والاعتناء بالكنيسة، ورعاية المضطربين، أو من يُعَدّون ممسوسين، ممن كانوا يعيشون على هامش الجماعة. وقد استخدم هيلاريوس علم نفس بارعًا: رأى أن وظيفة مرموقة ستجعل مارتينوس يهرب، لكنه لن يرفض أبدًا أدنى درجة في الكنيسة، خوفًا من أن يبدو متكبرًا!

الفصل السادس

اللقاء مع الشيطان على الطريق، والجلد العلني، والسمّ في جزيرة غالينارا

وبينما كان يواصل طريقه، بعد مروره بميلانو، ظهر له الشيطان على الطريق في هيئة إنسان وسأله إلى أين هو ذاهب. فلما أجاب مارتينوس بأنه ذاهب إلى حيث يدعوه الرب، أنذره الشيطان: «أينما ذهبت ومهما حاولت، فسيقف الشيطان دائمًا في طريقك!» فأجابه مارتينوس في الحال بآية المزمور: «*الرب معي فلا أخاف، ماذا يصنع بي البشر؟*» وفي تلك اللحظة عينها اختفى العدو من أمامه.

ولما وصل أخيرًا إلى وطنه، تمكّن من تحقيق جزء مما كان يتوق إليه كثيرًا: فقد قاد أمه إلى ترك الوثنية واعتناق الإيمان، مع أن أباه رفض بعناد أن يغيّر حياته. لكن في أثناء ذلك دفع مثالُ مارتينوس كثيرين آخرين إلى الاهتداء.

في ذلك الوقت كانت البدعة الآريوسية قد انتشرت في أنحاء الإمبراطورية وكانت مسيطرة خصوصًا في منطقة إيليريكوم. فوقف مارتينوس، وهو شبه وحيد، بشجاعة هائلة في وجه الأساقفة المحليين الذين يدافعون عن ذلك التعليم. ودفع ثمن تلك الصراحة غاليًا: اضطُهد بقسوة، وضُرب بالعصيّ في الساحة العامة، وفي النهاية طُرد من المدينة. فعاد إلى إيطاليا، لكنه حين علم أن الكنيسة في بلاد الغال أيضًا تمرّ بصعوبات كبيرة لأن الهراطقة نجحوا في إرسال القديس هيلاريوس إلى المنفى، قرر أن يُنشئ ديرًا صغيرًا في ميلانو. وحتى هناك لم يهنأ بالسلام: فأوكسنتيوس، كبير زعماء الآريوسيين في المدينة، شنّ عليه اضطهادًا شرسًا، وبعد أن أذاقه كل أنواع الإهانة وسوء المعاملة، طرده من ميلانو.

ورأى مارتينوس أن الأحكم أن ينتظر مرور العاصفة، فانسحب إلى جزيرة صغيرة تسمى غالينارا، برفقة كاهن عظيم الفضيلة. وهناك عاش مدة لا يقتات إلا بالجذور والأعشاب البرية. وذات يوم، من دون أن ينتبه، أكل الخربق، وهو نبات شديد السمّية. فلما أحسّ بالسم ينتشر في جسده وأدرك أنه على شفير الموت، أخذ يصلّي بكل قوته: فزال الخطر واختفت الآلام تمامًا. وبعد قليل علم أن الإمبراطور، وقد ندم على قراره السابق، أذن للقديس هيلاريوس بالعودة من المنفى؛ فانطلق مارتينوس في الحال إلى روما على أمل أن يلحق به في طريق عودته.

> **سياق الراوي: الأزمة الآريوسية وجزيرة مارتينوس المهجورة**
>
> لكي نفهم لماذا **جُلد مارتينوس في الساحة العامة** في البلقان (مقاطعة *Illyricum*، التي كانت تضم بانونيا وجزءًا من كرواتيا وصربيا الحاليتين) وطُرد من **ميلانو**، علينا أن ننظر إلى أكبر جدل ديني في القرن الرابع: **الآريوسية**.
>
> كان آريوس، وهو كاهن من الإسكندرية، يعلّم أن يسوع المسيح ليس إلهًا أزليًا مساويًا للآب، بل هو أول وأكمل مخلوق خلقه الله. ومع أن مجمع نيقية (325) كان قد أدان هذه الفكرة، انحاز الإمبراطور **قسطنطيوس الثاني** إلى الأساقفة الآريوسيين: فنفى الأساقفة الأوفياء لنيقية (مثل القديس هيلاريوس أسقف بواتييه، الذي أُبعد إلى تركيا الحالية سنة 356) وسلّم كراسي أسقفية مهمة، مثل العاصمة الإمبراطورية ميلانو، إلى أساقفة آريوسيين مثل **أوكسنتيوس**.
>
> ولأنه لم يكن لمارتينوس مكان في المدن التي يسيطر عليها الآريوسيون، التجأ إلى **جزيرة غالينارا** (*Isola Gallinara*)، وهي جُزيرة صخرية صغيرة قبالة ساحل ليغوريا (قرب ألبينغا، في شمال إيطاليا). وهناك عاش ناسكًا يأكل الجذور البرية — إلى اليوم الذي التبس عليه فيه جذرٌ فإذا هو **الخربق**، نبات سام قادر على إحداث توقف القلب.

الفصل السابع

دير Ligugé والمعجزة الأولى: الموعوظ الذي عاد إلى الحياة

ولأن هيلاريوس كان قد غادر روما حين وصل إليها، تبع مارتينوس خطاه إلى بواتييه. فاستقبله هيلاريوس بفرح عظيم، وبعد وقت قصير أسّس مارتينوس ديرًا صغيرًا في ضواحي المدينة. ولم يمضِ وقت طويل حتى انضم إليه موعوظ شاب أراد أن يتعلم العيش بإرشاد معلّم يحظى بكل ذلك الإعجاب؛ لكن بعد أيام قليلة لزم الشاب الفراش بحمّى شديدة.

ولسوء الحظ كان مارتينوس قد اضطر إلى السفر وغاب ثلاثة أيام. فلما عاد وجده قد مات: كان المرض مباغتًا إلى حد أن الشاب رحل من دون أن يتسنى له حتى أن يعتمد. كان الجثمان مسجّى في وسط الغرفة، يحيط به الرهبان باكين وهم يُعدّون الجنازة، حين دخل مارتينوس راكضًا وهو يبكي بمرارة.

وبإلهام داخلي عميق، طلب من الجميع أن يخرجوا من القلّاية الصغيرة حيث يرقد الجثمان، وأقفل الباب من الداخل، وتمدد فوق الأخ الهامد. وبقي على هذه الحال، يصلّي بحرارة، مدة من الزمن، إلى أن أحسّ، في أعماق نفسه، بأن قوة الله تعمل. عندئذ نهض قليلًا وأبقى عينيه مثبّتتين على وجه الشاب، منتظرًا، وهو ممتلئ ثقة، ثمرة صلاته ورحمة الرب. ولم تكد تمرّ ساعتان حتى رأى الجسد كله يبدأ، ببطء شديد، بالتحرك، والجفنين يرتعشان وينفتحان من جديد على النور. فتأثر مارتينوس تأثرًا عميقًا وانطلق يشكر الله بصوت عالٍ جدًا حتى ملأت صيحات الفرح القلّاية كلها. فلما سمع الرهبان المنتظرون في الخارج عند الباب ذلك، اندفعوا إلى الداخل فورًا — فعقدت الدهشة ألسنتهم حين رأوا حيًّا من تركوه ميتًا!



في دير Ligugé — أقدم دير في أوروبا — بعد ساعتين من صلاة مارتينوس الحارّة، يفتح الموعوظ الشاب الذي مات بلا معمودية عينيه ويعود إلى الحياة، وسط ذهول الرهبان.

وبعد أن عاد الشاب إلى الحياة اعتمد فورًا وعاش سنوات كثيرة بعد ذلك، فصار بيننا أول شاهد حيّ على معجزات مارتينوس. وكان هو نفسه يروي ما حدث له بعد أن فارق جسده: لقد اقتيد إلى حضرة الديّان الأعلى، ولأنه لم يكن معمَّدًا بعد، كان قد سمع لتوّه الحكم القاسي الذي يرسله إلى مكان مظلم وسط حشد لا اسم له. لكن في تلك اللحظة أبلغ ملاكان الديّانَ بأن هذا هو الشاب نفسه الذي يصلّي مارتينوس من أجله. فبأمر من الديّان أعاده الملاكان نفساهما، وسلّماه إلى مارتينوس، وردّاه إلى الحياة. ومنذ ذلك اليوم

ذاع صيت مارتينوس في كل مكان: فالرجل الذي كان الجميع يعدّونه قديسًا من قبل صار يُعجَب به أيضًا لقوة عجائبه ويُشبَّه بالرسل أنفسهم.

> **سياق الراوي: أقدم دير في أوروبا ورواية من القرن الرابع عن تجربة الاقتراب من الموت**
>
> الجماعة الصغيرة التي أنشأها مارتينوس قرب بواتييه نحو سنة **361** هي **Ligugé** — ويعدّه المؤرخون **أقدم دير في أوروبا الغربية**، إذ أُسّس قبل القديس بنديكتوس بأكثر من قرن ونصف!
>
> لاحِظ تفصيلين طريفين في هذه الحادثة:
>
> 1. **حركة الأنبياء القدامى:** حين يغلق مارتينوس باب الغرفة ويتمدد فوق الشاب الميت، فإنه يكرر تمامًا ما فعله النبيان إيليا (1 ملوك 17: 21) وأليشع (2 ملوك 4: 34) في العهد القديم.
> 2. **الخوف من الموت بلا معمودية:** لماذا يقول الشاب إنه كان على وشك أن يُرسَل إلى «مكان مظلم» (*obscuris locis*)؟ عند مسيحيي القرن الرابع، كان الموت في مرحلة الموعوظين، قبل المعمودية، يحرم النفس من الدخول الكامل إلى النور — وهذا الوصف هو أيضًا من أقدم الروايات في الأدب الغربي عما نسميه اليوم تجربة الاقتراب من الموت.

الفصل الثامن

عبد لوبيكينوس الشاب يُنقَذ من الموت

وبعد وقت قصير، بينما كان مارتينوس يمرّ بأملاك لوبيكينوس، وهو رجل بالغ الأهمية وذو مكانة عالية في المجتمع، سمع من بعيد صراخ حشد من الناس وبكاءهم اليائس. فقلق، وصعد إلى البيت ليسأل عما حدث، فقيل له إن عبدًا شابًا من عبيد المزرعة قد أنهى حياته لتوّه شنقًا.

وما إن علم مارتينوس بذلك حتى دخل الغرفة الصغيرة التي وضعوا فيها الجثمان، وطلب من الجميع أن يخرجوا، وتمدد فوق الشاب وبقي يصلّي مدة. وبعد قليل بدأ اللون يعود إلى وجنتي الشاب، وعيناه، وقد انطفأتا، استعادتا بريقهما وثبتتا على وجه مارتينوس. وببذل جهد بطيء لينهض، أمسك الشاب بيد مارتينوس اليمنى، ووقف على قدميه، وخرج ماشيًا على رجليه، ويده في يده، حتى فناء المدخل، أمام عيون كل أولئك الناس التي لا تصدّق ما ترى.

سياق الراوي: الرحمة بأضعف الناس في الضِّيَاع الرومانية الكبرى

كان لوبيكينوس ما يسميه الرومان *vir honoratus* — مالك أراضٍ كبيرًا من الأرستقراطية السيناتورية، سيّد ضيعة زراعية شاسعة (*villa*) يعمل فيها عشرات أو مئات العبيد (الـ*familia*، بالمعنى الروماني للكلمة).

وما يجعل هذا الفصل القصير مؤثرًا إلى هذا الحد هو ردّ فعل مارتينوس على انتحار عبد مسكين (*servulus*). ففي حين أن قوانين الكنيسة في القرون التالية ستدين الانتحار بصرامة هائلة، إلى حد منع الدفن المسيحي، لا يلقي مارتينوس أي موعظة ولا يخاف أن يلمس شابًا أنهى حياته يائسًا: يدخل غرفته، ويصلّي فوق جسده، ويقود الشاب بيده إلى الفناء، أمام السيد وكل خدم البيت.

الفصل التاسع

«الاختطاف» لجعله أسقفًا على تور وإذلال الأسقف ديفنسور

في نحو ذلك الوقت بدأ شعب كنيسة تور يرغب في مارتينوس أسقفًا له. ولأنهم كانوا يعلمون أن إخراجه من ديره لن يكون سهلًا أبدًا، ابتكر أحد سكان تور، واسمه روريكيوس، حيلة: تظاهر بأن زوجته على شفير الموت، وارتمى جاثيًا عند قدمي مارتينوس، وتوسّل إليه بإلحاح حتى أقنعه بأن يأتي معه. وعلى طول الطريق كانت عدة مجموعات من أهل المدينة قد تمركزت باتفاق مسبق؛ فأحاطوا به في الطريق وأخذوه، كأنه تحت الحراسة تقريبًا، إلى تور.

وكان في انتظاره حشد مهيب، جاء لا من تور وحدها بل من المدن المجاورة أيضًا، للتصويت على اختيار الأسقف الجديد. ولم يكن بين الشعب رأيان: كان الجميع يريدون الشيء نفسه ويقولون بصوت واحد إن أحدًا لا يستحق الأسقفية أكثر من مارتينوس، وإن الأبرشية التي يكون على رأسها رجل مثله أبرشية سعيدة. لكن كانت هناك مجموعة صغيرة معارضة — بينها بعض الأساقفة الذين استُدعوا إلى المدينة لحفل السيامة — حاولت منع هذا الاختيار بأي ثمن. كانوا يقولون صراحة إن مارتينوس ليس إلا شخصًا لا مكانة له، وإن مظهره لا يليق بأسقف، وإنه يمشي رثّ الثياب، بملابس متسخة وشعر أشعث. لكن الشعب، وكان أرجح منهم عقلًا بكثير، ضحك من عناد أولئك الأحبار الذين، وهم يحاولون الحطّ من قدر رجل جدير بكل هذا الإعجاب، لم يكونوا يفعلون سوى التغنّي بمدحه. وفي النهاية لم يكن أمامهم خيار سوى تكريسه، مدفوعين بإرادة الشعب وبتدبير الله.

ويُروى أن أشدّ الأساقفة الحاضرين معارضةً لمارتينوس كان رجلًا اسمه، ويا للمفارقة، ديفنسور — وأنه في ذلك اليوم نفسه انتهى إلى الإذلال علنًا بما رآه الجميع علامة نبوية. فقد حدث أن القارئ المكلّف

بقراءة الكتب المقدسة في الاحتفال لم يستطع أن يشقّ طريقه بين الحشد وعلق في الخارج. وبينما كان الكهنة عند المذبح ينتظرون، مرتبكين لا يدرون ما يفعلون، التقط أحد الحاضرين كتاب المزامير، وفتحه كيفما اتفق، وبدأ يقرأ بصوت عالٍ أول آية وقعت عليها عيناه. وكان المزمور يقول: *«من أفواه الأطفال والرضّع أخرجتَ حمدًا كاملًا في وجه خصومك، لتهزم العدو والمدافع.»*

وما كادت هذه الكلمات تدوّي في الكنيسة حتى انفجر الشعب كله في هتاف هائل، تاركًا المعارضين مجرّدين من كل سلاح ومكلّلين بالخزي. ولم يشكّ أحد في أن ذلك المزمور جاء بمشيئة الله، ليسمع الأسقف ديفنسور هناك وفي الحال إدانة مكيدته: فبصوت البسطاء تأكد حمد الله في مارتينوس، وفي الوقت نفسه سقط قناع الخصم.

سياق الراوي: الانتخابات الشعبية في الكنيسة، وأساقفة الطبقة الراقية، والتورية في اسم «ديفنسور»

التاريخ هو **4 يوليو 371**، يوم كُرّس مارتينوس أسقفًا على تور (*Caesarodunum* *Turonum*). وهذه الحادثة تصوّر تمامًا ثلاثة جوانب حيّة جدًا من كنيسة القرن الرابع:

1. **كيف كان الأسقف يُنتخب:** في العصور القديمة لم يكن الأساقفة يُعيَّنون من بعيد من روما؛ بل كان يختارهم مباشرة، في جمعية مفتوحة، مسيحيو المدينة (*ad suffragia ferenda*)، مع الكهنة المحليين وأساقفة الأبرشيات المجاورة. وحين كان راهب يحبه الشعب كثيرًا لا يريد قبول المنصب، كان السكان يلجأون أحيانًا إلى «اختطاف ودّي» — تمامًا كما فعل روريكيوس!

2. **الصدام بين الأساقفة المتأنقين والراهب الأشعث:** لماذا اشمأزّ الأساقفة الآخرون من ثياب مارتينوس البالية وشعره الطويل المهمل؟ لأن أسقفية مدينة رومانية كانت، في النصف الثاني من القرن الرابع، قد أصبحت منصبًا ذا وجاهة اجتماعية كبيرة، يشغله قبل كل شيء أعضاء سابقون في مجلس الشيوخ وكبار الموظفين وكبار الملّاك، ممن اعتادوا الأثواب الناصعة وآداب الأرستقراطية. فمظهر ناسك فقير، بلحية وشعر غير مقصوصين، كان يخالف كل قواعد اللياقة عند تلك الفئة.

3. **المصادفة المدوّية في المزمور 8: 3:** لماذا أشعلت تلك القراءة الكنيسة حماسةً؟ في ترجمات الكتاب المقدس اليوم تَرِد الآية هكذا: *«لتسكيت عدوّ ومنتقم»*. لكن في *Vetus Latina* — الترجمة اللاتينية القديمة المستخدمة في بلاد الغال في أيام مارتينوس — كانت الكلمة المستعملة مقابل «منتقم» هي حرفيًا **defensorem**، أي «المدافع» (*"ut destruas inimicum et defensorem"*)! ولأن زعيم المعارضة لمارتينوس كان اسمه **ديفنسور** (Defensor)، فإن سماع أحدهم يقرأ كيفما اتفق *«لتهزم العدو والـDefensor»* بدا للجميع جوابًا مباشرًا من الله، يسمّي الأشخاص بأسمائهم!

الفصل العاشر

الأسقف الذي سكن كوخًا من خشب: تأسيس Marmoutier

بعد أن صار أسقفًا، أكاد لا أجد الكلمات لأصف عظمة النفس التي أظهرها مارتينوس. فقد ظل تمامًا الرجل نفسه الذي كانه دائمًا: التواضع نفسه في القلب، والفقر نفسه في الملبس. وكان، وهو ممتلئ هيبة طبيعية ونعمة، يؤدي مسؤوليات الأسقف كاملة من دون أن يتخلى يومًا عن حياة الراهب البسيطة المتقشفة.

في الأيام الأولى كان ما زال يسكن غرفة صغيرة ملاصقة لكنيسة المدينة. لكن لأنه لم يكن يطيق سيل الناس المتواصل الذين يأتون ليطرقوا بابه، قرر أن يؤسس ديرًا على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من تور. وكان المكان هادئًا ومخفيًا إلى حد أنه يبدو كالصحراء نفسها: فمن جهة يرتفع الجدار الشاهق لجرف صخري؛ ومن الجهة الأخرى يحتضن نهر اللوار السهل الصغير في انعطافة لطيفة. ولم يكن للوصول إليه سوى درب واحد، وحتى هذا كان ضيقًا جدًا.



دير Marmoutier، في ضواحي تور: بين الجرف الكلسي المحفور كهوفًا ومنعطف نهر اللوار، ينصرف أصغر التلاميذ سنًّا إلى نسخ المخطوطات.

بنى مارتينوس لنفسه كوخًا بسيطًا من الخشب والأغصان المجدولة، وفعل عدة رهبان الشيء نفسه؛ أما أغلبهم فحفروا مأواهم مباشرة في الصخر الليّن في سفح التل. كان يعيش هناك ثمانون تلميذًا، كلهم

ملتزمون باتباع مثال معلّمهم. لم يكن أحد يملك شيئًا؛ كان كل شيء ملكًا للجميع، وكان يُمنع شراء أي شيء أو بيعه، على خلاف ما كان يفعله كثير من الرهبان الآخرين يومها.

ولم يكن أحد هناك يمارس حرفة يدوية، باستثناء واحد فقط: نسخ الكتب — وهي مهمة أُعطيت لأصغرهم سنًّا، ليتمكن الأكبر سنًّا من التفرغ الكامل للصلاة. وقلّما كان أحد يخرج من قلّايته، إلا في ساعة الصلاة المشتركة. وكانوا جميعًا يتناولون وجبة واحدة مشتركة في آخر النهار، بعد انتهاء الصوم، ولم يكن أحد يشرب الخمر إلا إذا كان مريضًا واحتاج إليه دواءً. وكان معظمهم يلبسون أثوابًا خشنة من وبر الجمال؛ وكان لبس الأقمشة الناعمة يُعَدّ هناك خطأً جسيمًا — وهو أمر يزداد إثارة للإعجاب إذا تذكّرنا أن كثيرين من أولئك الرهبان كانوا من أسر نبيلة، تربّوا في الرفاهية واختاروا هذه الحياة القاسية المتواضعة بمحض إرادتهم. وقد رأينا لاحقًا عددًا منهم يصيرون أساقفة؛ فأيّ مدينة أو أيّ أبرشية لم تكن تحلم بأن يكون على رأسها كاهن تربّى في دير مارتينوس؟

سياق الراوي: كهوف نهر اللوار ومهد نُسّاخ العصور الوسطى

الملجأ الذي أنشأه مارتينوس على بعد ميلين رومانيين (نحو 3 كيلومترات) من تور، محشورًا بين السفح الكلسي ونهر اللوار (*Liger*)، سيصير دير **Marmoutier** الشهير (*Maius Monasterium*). وصخر تلك الضفة من اللوار هو *tuffeau*، حجر كلسي أبيض سهل الحفر، وما زلت تستطيع اليوم أن تزور فيه الكهوف التي فتحها رهبان مارتينوس!

في هذا الفصل تفصيلان لهما أثر هائل في التاريخ الأوروبي:

1. **التفرغ الحصري لنسخ الكتب (*scriptores*):** بينما كان رهبان صحارى مصر ينسجون السلال أو الحبال ليكسبوا خبزهم، وضع مارتينوس في Marmoutier قاعدة جديدة في الغرب: العمل اليدوي الوحيد في الدير هو **نسخ الكتب باليد**. وبتكليفه أصغر الرهبان بنقل المخطوطات، زرع مارتينوس بذرة الـ*scriptoria* التي ستظهر في العصور الوسطى وتنقذ جزءًا كبيرًا من الثقافة القديمة والمسيحية في أثناء سقوط الإمبراطورية الرومانية.
2. **مشتل لأساقفة جدد:** باجتذابه شبانًا من الأرستقراطية الرومانية (*nobiles*) إلى حياة مجرّدة من الممتلكات ومكرّسة لدراسة الكتب المقدسة، تحوّل Marmoutier إلى مدرسة روحية حقيقية خرج منها كثير من الأساقفة الذين جدّدوا الكنيسة في بلاد الغال.

الفصل الحادي عشر

الشهيد المزيّف ينكشف: روح المجرم بجانب المذبح

لننتقل الآن إلى أمور أخرى جديرة بالإعجاب فعلها مارتينوس وهو أسقف. غير بعيد عن المدينة، قريبًا جدًا من الدير، كان هناك قبر اعتاد الناس أن يذهبوا إليه للصلاة، مقتنعين بأن شهداء مسيحيين مدفونون فيه — حتى إن أساقفة سابقين أمروا بإقامة مذبح في المكان.

لكن مارتينوس لم يكن رجلًا يصدّق بسهولة قصصًا لم تُروَ كاملة. فأخذ يسأل أقدم كهنة الأبرشية ورجال إكليروسها مَن كان ذلك الشهيد فعلًا ومتى مات، معترفًا بأنه يجد صعوبة كبيرة في قبول تكريم لم يترك عنه الأقدمون أي سجل موثوق. ولمدة من الزمن تجنّب حتى أن تطأ قدمه المكان: فلأنه لم يكن على يقين، لم يُرد أن يجرح حسن نية الناس، لكنه رفض أيضًا أن يمنح بحضوره غطاءً رسميًا لعبادة قد لا تكون أكثر من خرافة. إلى أن قرر ذات يوم أن يذهب إلى المكان، لا يرافقه سوى بضعة رهبان.

وقف أمام القبر وصلّى إلى الله طالبًا أن يُريه من هو المدفون هناك وأي حياة عاشها. وما إن أدار رأسه إلى اليسار حتى رأى، واقفًا هناك تمامًا، شبحًا داكنًا شرس المنظر. فأمره مارتينوس بأن يقول ما اسمه وماذا فعل في حياته. فذكر الروح اسمه واعترف بكل شيء: كان قاطع طريق، أُعدم بسبب الجرائم التي ارتكبها، وكان يُكرَّم لمجرد خطأ وقع فيه شعب لا يعرف الحقيقة؛ ولا علاقة له على الإطلاق بالشهداء، فبينما هم في مجد الله، هو يقضي عقابه هناك. وأكثر ما يلفت أن الرهبان المرافقين لمارتينوس كانوا يسمعون الصوت المجيب بوضوح تام، مع أنهم لم يروا أحدًا.

ثم أخبرهم مارتينوس بما رآه للتوّ وأمر بإزالة المذبح من ذلك المكان فورًا، محررًا الأهالي من أن يبقوا مخدوعين بذلك التكريم الزائف.

> **سياق الراوي: الحسّ النقدي عند مارتينوس وحمّى الذخائر في القرن الرابع**
>
> في أواخر القرن الرابع بلغ تكريم الشهداء أوجه في أنحاء الإمبراطورية الرومانية: كانت كل بلدة تريد أن يكون عندها قبر بطل من أبطال الاضطهادات القديمة، وكان يكفي أن يظهر قبر قديم على جانب طريق حتى يبدأ الناس بالحج إليه.
>
> وموقف مارتينوس واضح البصيرة على نحو مدهش بالنسبة إلى تلك الحقبة: فبدل أن يغضّ الطرف لأن الأمر «مفيد لإيمان الشعب»، يتصرف كمحقق متشدد. يستجوب أقدم الكهنة، ويبحث عن سجلات تاريخية — اسم الشهيد وتاريخ الاستشهاد (*acta martyrum*) — ويرفض أن يصادق على تكريم بلا دليل. ولاحِظ أيضًا تفصيلًا رمزيًا معهودًا في العالم القديم: شبح المجرم يظهر **عن اليسار** (*sinistra* — *ad laevam* باللاتينية)، وهي الجهة التي كانت، في الثقافة الرومانية وفي إنجيل القديس متى (25: 33) معًا، مرتبطة بالإدانة.

الفصل الثاني عشر

الجنازة الوثنية المتجمدة في وسط الحقول

بعد مدة، في إحدى رحلاته عبر الريف، لمح مارتينوس من بعيد جنازة رجل وثني، في طريقها إلى الدفن تحيط بها طقوس خرافية. ولأنهم كانوا ما زالوا على بعد أكثر من سبعمئة متر، توقف مارتينوس ليحاول أن يفهم ما ذلك التجمع، إذ لم يستطع أن يتبيّن بوضوح من بعيد ما الذي يجري.

لكنه رأى أنها مجموعة كبيرة من الفلاحين، ولاحظ أقمشة بيضاء من الكتان ترفرف في الريح فوق ما يحملونه على أكتافهم. فاقتنع في الحال بأنهم يقيمون موكبًا وثنيًا، لأن أهل الريف في بلاد الغال كانت لهم عادة قديمة أن يطوفوا بتماثيل آلهتهم في الحقول، مغطاة بأقمشة بيضاء.

عندئذ رفع مارتينوس يده، ورسم إشارة الصليب في اتجاههم، وأمرهم بأن يتوقفوا حيث هم ويضعوا ما يحملونه. وما تلا ذلك كان مذهلًا: أولًا توقف أولئك الرجال كلهم فجأة، جامدين كتماثيل من حجر؛ ثم، مهما اجتهدوا ليتقدموا، لم يستطيعوا أن يخطوا خطوة واحدة إلى الأمام، وأخذوا يدورون ويدورون في مكانهم بطريقة مضحكة تمامًا، إلى أن أُنهكوا فلم يبقَ لهم خيار سوى أن يضعوا الجثمان على الأرض. فنظر بعضهم إلى بعض في صمت، حائرين، لا يفهمون ما الذي يحدث لهم.

وفي أثناء ذلك، حين رأى مارتينوس المشهد من مسافة أقرب، أدرك أنها جنازة فقط لا موكب أصنام. فرفع يده من جديد وتركهم أحرارًا ليحملوا الميت ويواصلوا طريقهم. وهكذا، حين شاء، أوقفهم؛ وحين رأى ذلك مناسبًا، تركهم يمضون بسلام.

سياق الراوي: من أين جاءت الكلمة اللاتينية paganus «وثني» ومواكب المزارعين في بلاد الغال

هذه الحادثة — وهي تكاد تكون هزلية بصورة الرجال الذين يدورون في حلقات، عاجزين عن مغادرة المكان نفسه — تساعد على شرح أصل الكلمة التي تسمّي بها اللاتينية واللغات الأوروبية **الوثني**!

في اللاتينية كانت القرية أو الناحية الريفية تسمى *pagus*، ومن يسكن فيها هو *paganus* — ساكن الريف، القروي (ويسميه سولبيسيوس أيضًا *rusticus*). ومن هذه الكلمة جاءت تسمية «الوثني» في الإنجليزية (pagan) وفي لغات أوروبية كثيرة، أما الكلمة العربية «وثني» فمشتقة من «الوثن»، أي الصنم. وبينما انتشرت المسيحية سريعًا في المدن الرومانية (*civitates*)، حافظ المزارعون في أرياف بلاد الغال زمنًا طويلًا على الطقوس الكلتية-الرومانية القديمة. ومن أكثرها شعبية طقس كان يجري في الربيع (يشبه العيد الروماني *Ambarvalia* وعبادة كيبيلي أو الإلهات الأمهات الكلتيات القديمات): كانوا

يحملون صور آلهة، مغطاة بأقمشة بيضاء من الكتان، في موكب حول حقول القمح ليطلبوا مواسم جيدة. وعلى مسافة 500 خطوة رومانية (نحو 740 مترًا)، ظنّ مارتينوس الكفن ستائر أحد تلك المواكب الزراعية — لكنه ما إن رأى أنهم مجرد أهل قرية ذاهبين لدفن ميت حتى تركهم يمضون في شأنهم.

الفصل الثالث عشر

تحدّي الصنوبرة المقدسة: مقيّدًا تحت الشجرة الساقطة

وفي مناسبة أخرى، في قرية كان قد هدم فيها للتوّ معبدًا وثنيًا قديمًا جدًا، كان مارتينوس يستعد ليأمر أيضًا بقطع شجرة صنوبر عظيمة تقوم بجانب المعبد تمامًا. لكن هذه المرة خرج الكاهن الوثني المحلي وكل السكان لمنعه. وقد يبدو الأمر غير معقول، لكن أولئك الناس أنفسهم الذين وقفوا، بمشيئة الله، هادئين بينما كان المعبد الحجري يُهدم، لم يسمحوا بأي حال بأن تُمَسّ الشجرة.

حاول مارتينوس بصبر أن يشرح لهم أن جذعًا من خشب ليس فيه شيء إلهي: فليعبدوا بالأحرى الإله الحقيقي الذي يخدمه هو، فتلك الشجرة لا بد أن تسقط لأنها مكرّسة لروح زائف. إلى أن رمى أحد القرويين، وكان أجرأ من الباقين، تحديًا: «إن كانت لك كل هذه الثقة بهذا الإله الذي تقول إنك تخدمه، فلنعقد اتفاقًا: نقطع نحن الشجرة بأنفسنا، وتقف أنت تحتها وتتلقاها وهي تسقط! فإن كان ربك معك حقًا، فستنجو حيًّا!»

ومن دون أن يرفّ له جفن، وهو ممتلئ ثقة بالله، قبل مارتينوس الصفقة. فلما سمع الوثنيون ذلك وافقوا جميعًا في الحال: فبالنسبة إليهم، كانت خسارة شجرتهم المقدسة تستحق العناء إن سحقت في سقوطها، مقابل ذلك، الرجل الذي يجول مدمّرًا معابدهم.

ولأن الصنوبرة كانت تنمو أصلًا مائلة كثيرًا إلى جهة واحدة، لم يكن عند أحد أدنى شك في الموضع الدقيق الذي ستسقط فيه. فقيّد القرويون مارتينوس ووضعوه بالضبط في النقطة التي اختاروها، تحت ميل الجذع تمامًا. ثم حملوا فؤوسهم وبدأوا يقطعون الصنوبرة بأنفسهم، وهم ممتلئون حماسة ورضًا. ومن حولهم تجمّع بحر من الناس ليشاهدوا من بعيد، حابسين أنفاسهم. وشيئًا فشيئًا بدأت الصنوبرة الهائلة تتمايل وتطقطق، على وشك أن تهوي. ومن بعيد شحبت وجوه الرهبان المرافقين لمارتينوس حتى صارت بيضاء كالكفن: فقد استولى عليهم الرعب من الخطر الداهم، وفقدوا كل رجاء وحتى إيمانهم، مقتنعين بأنهم سيرون مارتينوس يُسحق حتى الموت هناك.

أما هو فبقي هادئًا تمامًا، مستسلمًا بين يدي الرب. وحين انشقّ الجذع بدويّ وبدأ أخيرًا يميل مباشرة نحوه، على وشك أن يسحقه، رفع مارتينوس يده ورسم إشارة الصليب في الهواء. وفي تلك اللحظة عينها — كأن هبّة ريح عاتية ضربتها وجهًا لوجه — ارتدّت الصنوبرة وسقطت في الجهة المقابلة، وكادت تطبق على الفلاحين الذين وقفوا في المكان الذي ظنّوه الأكثر أمانًا!



مقيّدًا بأيدي القرويين الوثنيين في الموضع الدقيق الذي كانت الصنوبرة المقدسة الهائلة ستسقط فيه، يرفع مارتينوس يده بإشارة الصليب فيجعل الشجرة تسقط في الاتجاه المعاكس.

فارتفع في الحال هتاف هائل: لم يصدّق الوثنيون ما رأوه للتوّ، وانفجر الرهبان باكين من الفرح، وهتف الجميع باسم المسيح بصوت واحد. وفي ذلك اليوم صار واضحًا أن الإيمان كسب تلك الأرض: ففي ذلك الحشد كله لم يكد يبقى وثني واحد لم يأتِ ليطلب من مارتينوس أن يضع يديه عليه ليصير موعوظًا، تاركًا المعتقدات القديمة ليتبع الرب يسوع. والحقيقة أنه قبل وصول مارتينوس إلى هناك لم يكن في تلك المنطقة مسيحي تقريبًا؛ لكن أثر معجزاته ومثاله كان عظيمًا إلى حد أنه لا توجد اليوم قرية في تلك النواحي ليس فيها كنائس ملأى بالناس أو أديرة. فكلما هدم مارتينوس معبدًا وثنيًا، كان يحرص على أن يبني في الحال كنيسة أو ديرًا صغيرًا في المكان نفسه.

سياق الراوي: لماذا دافع الغاليون عن شجرة صنوبر أكثر من معبد حجري؟

هل لاحظت تفصيلًا طريفًا في مطلع هذا الفصل؟ لقد ترك أهل القرية المعبد الحجري يُهدم من دون أي ردّ فعل، لكن حين أراد مارتينوس أن يقطع **شجرة الصنوبر** كادوا يقتلونه! لماذا؟

التفسير يكمن في ديانة الكلتيين (الغاليين) القديمة: قبل مجيء الرومان لم يكن الكلتيون يصلّون داخل مبانٍ مغلقة؛ فالمسكن الحقيقي للآلهة عندهم كان في الأشجار المعمّرة والغابات المقدسة (*nemora*). لم يكن المعبد الحجري سوى موضة جاء بها الرومان، أما تلك الصنوبرة العتيقة فكانت الروح الدينية للقرية!

ولاحِظ أيضًا صدق سولبيسيوس ساويروس الآسر، فهو لا يخفي ذعر رهبان مارتينوس أنفسهم، وهم يرتجفون من بعيد وقد فقدوا «كل رجاء وحتى إيمانهم». ولاحِظ الجملة الأخيرة في الفصل: إن عادة مارتينوس هذه في إقامة مُصلّى أو دير في موقع المعابد القديمة والأشجار المقدسة بالضبط كانت في أصل شبكة الرعايا الريفية في كل أنحاء أوروبا!

الفصل الرابع عشر

النار التي تراجعت عكس الريح والملاكان المسلّحان في ليفرو

في نحو ذلك الوقت نفسه، وفي واقعة مشابهة، كان مارتينوس في قلب حدث مدهش آخر. ففي قرية أضرم فيها النار في معبد وثني قديم جدًا ومشهور، بدأت الريح تدفع اللهب مباشرة نحو بيت مجاور ملاصق للمعبد. وما إن رأى مارتينوس الخطر حتى تسلّق راكضًا إلى سطح البيت ووقف مباشرة في وجه اللهب المتقدم. وما حدث بعد ذلك ترك الجميع فاغري الأفواه: فقد شوهدت النار تنثني إلى الوراء، عكس اتجاه الريح نفسه، كأن قوى الطبيعة تتقاتل في ما بينها! وهكذا، بفضل تدخّل مارتينوس، لم يلتهم الحريق إلا ما كان يُراد له أن يحترق وترك البيت سليمًا.

وفي مكان آخر، اسمه ليفرو، حاول مارتينوس أيضًا أن يهدم معبدًا كبيرًا، غنيًا جدًا ومحاطًا بتعبّد وثني هائل، لكن حشدًا غاضبًا تجمّع ضده وطرده من المكان بالشتائم والضربات. فانسحب مارتينوس إلى موضع قريب وقضى ثلاثة أيام كاملة لابسًا ثوب توبة خشنًا ومغطًّى بالرماد، بلا طعام ومصلّيًا طوال الوقت، طالبًا من الله، ما دامت الأيدي البشرية لم تتمكن من هدم ذلك المعبد، أن تفعل ذلك القدرة الإلهية نفسها.

وفي ختام تلك الأيام الثلاثة ظهر له فجأة ملاكان وفي يد كل منهما رمح وترس، كأنهما جنديان من الجيش السماوي. وقالا له إن الرب أرسلهما ليهزما الحشد ويحمياه بينما يُهدم المعبد: يستطيع أن يعود إلى القرية مطمئن البال ويُتمّ ما بدأه، لأن أحدًا لن يمسّه بإصبع.

فعاد مارتينوس إلى ليفرو في الحال، وأمام عيون كل أولئك السكان الوثنيين — الذين وقفوا يتفرجون، عاجزين تمامًا عن أي ردّ فعل — سوّى المعبد بالأرض حتى أساساته وحطّم كل المذابح والتماثيل. ولما أدرك سكان المكان أن قدرة إلهية وحدها يمكن أن تتركهم مشلولين هكذا وممتلئين خوفًا، عاجزين عن منع الأسقف، اهتدى معظمهم إلى يسوع المسيح، معلنين بصوت عالٍ أن إله مارتينوس وحده يستحق العبادة وأن تلك الأصنام، التي لم تستطع حتى أن تدافع عن نفسها، لا تساوي شيئًا.

سياق الراوي: إنقاذ بيت الجار ومعبد ليفرو الكبير

المستوطنة القديمة *Leprosum* هي اليوم بلدة **ليفرو** (Levroux) في وسط فرنسا (منطقة بيري)، حيث أكدت الحفريات الأثرية وجود مركز ديني غالي-روماني كبير.

ويستحق الانتباه ملمحان كاشفان جدًا في طريقة تصرّف مارتينوس:

1. **حارِب الصنم واحمِ الناس:** في الحادثة الأولى، ما إن يرى الريح ترمي لهب المعبد على سطح البيت المجاور المصنوع من القش أو الخشب، حتى يخاطر مارتينوس بحياته ويصعد إلى السطح المشتعل حتى لا يبقى الجار بلا مأوى.

2. **التوبة بدل الجنود:** حين يُطرد من ليفرو بالضرب، لا يذهب مارتينوس ليطلب من السلطات الرومانية جنودًا يفرضون القانون بالقوة (كما كان يفعل عدة أساقفة في زمنه). بل يفضّل أن ينسحب ثلاثة أيام للصوم، لابسًا **المِسح** (الـ*cilicium*، ثوب خشن من شعر الماعز أو وبر الجمال يُلبس على الجلد مباشرة) وعلى رأسه الرماد، تمامًا كما كان يفعل أنبياء الكتاب المقدس القدامى.

الفصل الخامس عشر

العنق المكشوف أمام السيف في أرض الإيدويين

أريد أيضًا أن أروي ما حدث في منطقة الإيدويين. بينما كان مارتينوس يأمر بهدم معبد محلي، انقضّت عليه عصابة هائجة من الفلاحين الوثنيين. واستلّ أحدهم، وكان أشدّ تهوّرًا من الباقين، سيفه واتجه مباشرة نحو مارتينوس ليقتله. فمن دون أن يتراجع خطوة، ألقى مارتينوس رداءه عن كتفيه إلى الوراء ومدّ إليه عنقه مكشوفًا. لم يتردد الرجل حتى في أن يضرب؛ لكنه في اللحظة نفسها التي رفع فيها ذراعه

عاليًا ليهوي بالسيف، فقد توازنه، وسقط على ظهره على الأرض، وامتلأ رعبًا لا تفسير له، وأخذ يتوسل الصفح.

ويشبه هذه كثيرًا واقعةٌ أخرى: حاول رجل أن يطعنه بسكين كبير بينما كان يحطّم بعض التماثيل الوثنية، لكن في اللحظة التي كان سيغرز فيها النصل، طار الحديد من يديه واختفى بلا أثر.

لكن في أغلب الأحيان، حين كان أهل الريف يحاولون منعه من هدم معابدهم، كان مارتينوس يكلّمهم بلطف واقتناع يجرّدان قلوبهم من كل سلاح — وإذ كان يفتح عيونهم على الحقيقة، كان السكان أنفسهم هم من يهدمون معابدهم في النهاية.

> **سياق الراوي: أرض الإيدويين وقوة الكلمة**
>
> كانت أرض **الإيدويين** (*pagus Aeduorum*) تقع في **بورغونيا** الحالية، حول مدينة أوتان (*Augustodunum*) القديمة). وكان الإيدويون من أقدم الشعوب الغالية وأشدّها اعتزازًا بنفسها، مشهورين منذ زمن يوليوس قيصر ولهم جذور درويدية عميقة جدًا.
>
> تأمّل جيدًا الجملة الأخيرة في هذا الفصل، وهي كثيرًا ما تمرّ من دون أن ينتبه إليها أحد: يحرص سولبيسيوس على أن يوضح أنه، برغم هذه اللحظات المتوترة بالسيوف وسكاكين الجزّارين (*culter*)، كان مارتينوس «*في أغلب الأحيان*» (*plerumque*) يتغلب على مقاومة القرى لا بالقوة بل بالحوار الصبور والوعظ، إلى أن يفكّك الأهالي أنفسهم المذابح القديمة.

الفصل السادس عشر

الفتاة المشلولة تُشفى في ترير بالزيت المبارَك

أما موهبة شفاء المرضى، فقد كانت لها عند مارتينوس قوة خارقة إلى حد أنه قلّما جاء أحد يطلب مساعدته إلا ومضى مشفيًا في الحال — كما يتضح جليًا من الواقعة التي سأرويها.

في مدينة ترير كانت تعيش فتاة أصابها شلل شديد إلى حد أنها لم تحرّك منذ زمن طويل عضلة واحدة في جسدها: كانت عمليًا ميتة من رأسها إلى قدميها، وبالكاد كان يُرى أنها ما زالت تتنفس. كانت العائلة كلها قد اجتمعت حول السرير باكية، ولم تعد تنتظر إلا النهاية لتهتم بالجنازة، حين سرى في المدينة خبر أن مارتينوس وصل للتوّ إلى ترير. وما إن سمع والد الشابة بذلك حتى خرج من البيت راكضًا، يكاد ينقطع نفَسه، ليتوسل إليه أن يساعد ابنته.

وكان مارتينوس حينها قد دخل الكنيسة. وهناك في الحال، أمام كل الشعب وكثير من الأساقفة الآخرين، ارتمى الأب العجوز على الأرض، وعانق ركبتيه، وناشده وهو ينتحب بحرقة: «ابنتي تموت من مرض رهيب — والأسوأ حتى من الموت نفسه — أنه لم يبقَ لها سوى خيط من النفَس في جسد يبدو ميتًا! أتوسل إليك بكل شيء أن تذهب إلى البيت وتباركها، لأن لي إيمانًا مطلقًا بأنها ستُشفى على يدك!»

فارتبك مارتينوس من طلب كهذا أمام الناس، وحاول أن يتراجع وهو في حرج شديد: قال إن هذا يتجاوز قدراته تمامًا، وإن الرجل المسكين مخطئ في أمره، وإنه لا يملك أي استحقاق ليصنع الله معجزة كهذه بواسطته. لكن الأب لم يتركه، وكان يزداد بكاءً ويلحّ عليه أن يأتي ليرى ابنته قبل أن تموت. وفي النهاية حتى الأساقفة الآخرون الحاضرون حثّوا مارتينوس على الذهاب، فذهب أخيرًا إلى بيت الفتاة. وفي الخارج، عند الباب، تجمّع حشد هائل ليرى ما سيفعله رجل الله.

أولًا، لجأ مارتينوس إلى أسلحته المعتادة في مثل هذه المناسبات، فجثا حتى لامست جبهته الأرض وبقي في الصلاة. ثم نظر إلى الفتاة وطلب قليلًا من الزيت؛ فباركه وصبّ قطرات من ذلك السائل المقدس في فمها — وفي اللحظة نفسها استعادت القدرة على الكلام. ثم، شيئًا فشيئًا، كلما لمسها مارتينوس، دبّت الحياة من جديد في ذراعيها وساقيها، إلى أن وقفت الشابة بخطى ثابتة أمام الشعب كله.

> **سياق الراوي: تريـر، العاصمة الإمبراطورية، ومباركة الزيت**
>
> تدور القصة هنا في **تريـر** (*Augusta Treverorum*، وهي اليوم مدينة **Trier** الألمانية، المعروفة أيضًا باسمها الفرنسي Trèves). في القرن الرابع لم تكن تريـر مدينة عادية: كانت **عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية**، حيث يقيم الإمبراطور وينعقد البلاط الإمبراطوري. ولهذا نرى مارتينوس في الكنيسة محاطًا بـ«كثير من الأساقفة الآخرين»، جاؤوا من مقاطعات مختلفة ليعالجوا شؤون أبرشياتهم في القصر.
>
> ولكل من يدرس تاريخ التقاليد المسيحية، هذه الحادثة هي أيضًا وثيقة ثمينة جدًا: إنها من أقدم الشهادات في الغرب على مباركة الأسقف للزيت (*oleum*) لشفاء أصحاب الأمراض الخطيرة — بادرة مستوحاة من رسالة القديس يعقوب (5: 14) وهي في أصل سرّ مسحة المرضى الحالي.

الفصل السابع عشر

البروقنصل السابق تيتراديوس وأصابع مارتينوس في فم رجل ممسوس

في نحو ذلك الوقت نفسه وقع عبد لتيتراديوس، وهو بروقنصل سابق وشخصية ذات وزن سياسي كبير، في حالة مسّ عنيفة كانت تعذّبه عذابًا فظيعًا. فجاؤوا يطلبون من مارتينوس أن يضع يديه عليه ويشفيه،

فقال لهم أن يحضروا الشاب إليه. لكن أحدًا لم يستطع إخراجه من الغرفة التي كان محبوسًا فيها: كان يتخبط بهياج شديد، محاولًا أن يعضّ كل من يفتح الباب، حتى لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

عندئذ ذهب تيتراديوس بنفسه وارتمى جاثيًا عند قدمي مارتينوس، متوسلًا إليه أن يأتي هو إلى بيته ليساعد الشاب. فأجاب مارتينوس بأنه لا يستطيع دخول بيت وثني — فتيتراديوس كان، في ذلك الوقت، ما زال يتبع الديانة الرومانية التقليدية. فوعده البروقنصل السابق في الحال بأنه، إن خرج الروح الشرير من ذلك العبد، سيصير هو نفسه مسيحيًا. فذهب مارتينوس إلى البيت، ووضع يده على رأس الشاب، وحرّره فورًا من ذلك العذاب. ولما رأى تيتراديوس ذلك بعينيه وفى بوعده: آمن بالرب يسوع، وسجّل نفسه في الحال موعوظًا، واعتمد بعد قليل، وظل طوال حياته يكنّ امتنانًا وتقديرًا عظيمين لمارتينوس، الذي كان يعدّه صاحب الفضل في خلاصه.

وفي تلك الأيام نفسها وفي المدينة نفسها، بينما كان مارتينوس يدخل بيت وجيه آخر، توقف فجأة عند الباب تمامًا ونبّه إلى أنه يرى شيطانًا بشعًا في الفناء الداخلي. وما إن أمره بالانصراف حتى دخل الروح في جسد خادم كان في آخر البيت، في المطبخ. ففقد المسكين صوابه تمامًا وأخذ يصرخ، ويصرّ على أسنانه، ويعضّ بعنف كل من يأتي أمامه. فعمّت الفوضى البيت كله: ذُعر الخدم الآخرون وهرب الجميع إلى الشارع.

فتقدّم مارتينوس مباشرة إلى الرجل الهائج وبدأ بأن أمره بأن يبقى ساكنًا. ولما استمر الرجل يصرّ على أسنانه وفتح فمه على اتساعه، مهددًا بتمزيقه بعضّته، وضع مارتينوس أصابعه هو في فمه وتحداه: «إن كانت لك كل هذه القوة، فعضّها!» وكأن حديدًا محمّى ضُغط على حلقه، سحب الممسوس فكّيه في الحال إلى أبعد ما يستطيع، حتى لا يمسّ أصابع مارتينوس ولو مسًّا خفيفًا. ولأن العقوبات الإلهية كانت تُجبره على ترك ذلك الجسد، لكنه لم يعد قادرًا على الخروج من الفم، انتهى الأمر بالروح النجس مطرودًا في إسهال عنيف، تاركًا أثرًا قذرًا على الأرض.

> **سياق الراوي: عضو رفيع في مجلس الشيوخ الروماني وواقعية العصور القديمة بلا تجميل**
>
> في هذا الفصل تفصيلان طريفان جدًا:
>
> 1. **تيتراديوس، *vir proconsularis*:** أن تكون للمرء منزلة «بروقنصلية» كان يعني أنه ينتمي إلى قمة مجلس الشيوخ الروماني وأنه سبق أن حكم مقاطعة كبيرة من مقاطعات الإمبراطورية. وحين يرفض مارتينوس في البداية دخول بيت وثني (مما يذكّر بالحوار الأول ليسوع مع المرأة الكنعانية أو مع قائد المئة في الأناجيل)، فإنه يقود ذلك الأرستقراطي المتكبر إلى أن يخطو خطوة إيمان شخصية — وكل ذلك لإنقاذ مجرد عبد من عبيد البيت!

2. **الواقعية الفجّة في طرد الأرواح الثاني:** كل من يقرأ هذا الفصل اليوم يفاجأ في الغالب بالنهاية الشديدة التصوير لهذه الحادثة! ففي العقلية الدينية للقرن الرابع، ما دامت أصابع الأسقف المكرَّسة قد دخلت فم الخادم، لم يعد الروح الشرير قادرًا على الخروج من ممرّ نال البركة — ولهذا يخبرنا سولبيسيوس، من دون لفّ أو دوران، بأنه اضطر إلى الخروج «من الأسفل»، بنوبة معوية عنيفة (*fluxu ventris*).

الفصل الثامن عشر

الشائعة الكاذبة عن غزو البرابرة، وقبلة الأبرص في باريس، وخيوط الثوب

وفي مناسبة أخرى انتشرت فجأة في المدينة شائعة بأن الشعوب البربرية تتحرك للهجوم، فأوقعت السكان كلهم في الذعر. عندئذ أمر مارتينوس باستدعاء رجل ممسوس إلى الكنيسة وأمر الروح بأن يقول الحقيقة كلها عن ذلك الخبر. فانتهى إلى الاعتراف بأن عشرة شياطين معًا أطلقوا تلك الشائعة في الشوارع، على أمل أن يجعل الخوفُ مارتينوس يهرب من المدينة؛ أما البرابرة فلم يخطر الهجوم حتى على بالهم. وبعد هذا الاعتراف، الذي قيل بصوت عالٍ في وسط الكنيسة، تنفست المدينة كلها الصعداء واستعادت هدوءها.

وفي باريس، في تلك الأثناء، بينما كان مارتينوس يعبر أحد أبواب سور المدينة محاطًا بحشد هائل، ظهر أبرص شوّه المرض وجهه تمامًا. وبينما تراجع الجميع وهم ممتلئون اشمئزازًا، تقدّم مارتينوس إليه مباشرة، وقبّله على وجهه، وباركه. فشُفي الرجل في تلك اللحظة، وفي اليوم التالي نفسه ظهر في الكنيسة بجلد نقي وسليم، شاكرًا الله على العافية التي استعادها.



عند مدخل أبواب باريس (لوتيتيا مدينة الباريسيين)، وبينما يبتعد الحشد مذعورًا، يتقدم الأسقف مارتينوس إلى أبرص مشوّه الوجه ويقبّله بحنان.

ولا يسعني أيضًا ألّا أذكر أن مجرد خيوط سُحبت من ثيابه أو من ثوبه المصنوع من وبر الجمال شفت مرضى في مرات لا تُحصى: كان يكفي ربطها حول الأصابع أو تعليقها في العنق لإبعاد المرض عن المتألمين.

سياق الراوي: شائعات الحرب في القرن الرابع والقبلة عند أبواب باريس

يجمع هذا الفصل حادثتين معبّرتين جدًا:

1. **حرب شائعات على الحدود الرومانية:** في بلاد الغال في أواخر القرن الرابع، ومن دون وسائل اتصال سريعة، كان يكفي كلام عن أن قبائل جرمانية عبرت الراين حتى تفرّ مدينة بأكملها. ومارتينوس يستخدم استجوابًا في وسط الكنيسة ليفضح الشائعة الكاذبة ويهدّئ السكان كلهم!

2. **"Apud Parisios" — ولادة اسم باريس:** لاحِظ العبارة اللاتينية التي يستخدمها سولبيسيوس ليحدد مكان المشهد: *apud Parisios* («في أرض الباريسيين»). نحن في اللحظة التاريخية ذاتها التي يسقط فيها الاسم الروماني القديم *Lutetia* من الاستعمال ليفسح المجال لاسم القبيلة الغالية المحلية — **باريس**! والباب في السور حيث قبّل مارتينوس الأبرص كان يقوم عند مدخل *Île de la Cité*، قريبًا جدًا من المكان الذي ترتفع فيه اليوم كاتدرائية Notre-Dame. وفي مجتمع كان الجذام يثير فيه الرعب وكان البُرص

يُطردون بالحجارة، انطبع إلى الأبد في ذاكرة المدينة مشهد أسقف يعانق رجلًا مشوّهًا ويقبّله على خدّه.

الفصل التاسع عشر

الرسالة التي شفت ابنة أربوريوس، وعين باولينوس النولي، والسقوط على الدرج

كان لأربوريوس، وهو والٍ روماني سابق ورجل ذو إيمان عميق وصادق جدًا، ابنة في البيت تذوي من نوبات رهيبة من حمّى الرّبع. وحدث أنه تلقّى في تلك الأيام رسالة كتبها مارتينوس؛ وفي اللحظة نفسها التي بدأت الحمّى ترتفع فيها من جديد عند الفتاة، وضع أبوها الرسالة على صدرها، وفي تلك الثانية عينها هبطت الحمّى ولم تعد أبدًا. فتأثر أربوريوس بما رآه إلى حد أنه قرر في الحال أن يكرّس ابنته لله، في حياة عفّة إلى الأبد. ثم انطلق ليبحث عن مارتينوس، وأخذ الشابة معه — برهانًا حيًّا على أنه شفاها حتى من بعيد — وأصرّ إصرارًا مطلقًا على أن يكون مارتينوس نفسه، لا أحد غيره، من يعطيها حجاب العذارى المكرَّسات.

أما باولينوس — وهو رجل سيصير لاحقًا مثالًا خارقًا في الحياة المسيحية للجميع — فقد بدأ يعاني آلامًا فظيعة في إحدى عينيه، إلى حد أن غشاءً سميكًا تكوّن فوق الحدقة وكاد يُعميه. فمرّر مارتينوس بلطف فرشاة طبية صغيرة على عينه، فأزال الألم كله في لحظة وردّ إليه بصره، كاملًا كما كان.

وأما مارتينوس نفسه، فقد أصابه ذات يوم سوء حظ فسقط من طابق علوي وتدحرج على درج مكسور مليء بدرجات معوجّة، حتى انتهى مجرّحًا ومرضوضًا من رأسه إلى قدميه. كان ممددًا في قلّايته يكاد يكون على شفير الموت، في ألم لا يُحتمل، حين ظهر له في الليل ملاك يغسل جروحه ويدهن جسده المهشَّم كله ببلسم ملطّف. وفي الصباح التالي نهض مارتينوس في حال جيدة ومعافًى تمامًا، حتى بدا كأنه لم يسقط قط.

لكن لو شرعت أروي هنا كل واقعة واحدة، لما انتهينا أبدًا؛ فلنتوقف عند هذه الأمثلة القليلة المختارة من بين كثير غيرها. فهي كافية تمامًا لإظهار الحقيقة عن أكثر الأمور التي حدثت إثارة للإعجاب، من دون إتعاب القارئ بكثرة القصص.

سياق الراوي: الملاريا، ومشكلات العيون، واسمان كبيران من الأرستقراطية الرومانية

هنا نلتقي شخصيتين تاريخيتين معروفتين جدًا من مصادر أخرى من تلك الحقبة:

1. **ماغنوس أربوريوس و«حمّى الرّبع»:** كان أربوريوس موظفًا إمبراطوريًا رفيعًا (*vir praefectorius*، واليًا في روما نحو 379–380) وابن أخي الشاعر الشهير أوسونيوس، من بوردو. و«حمّى الرّبع» التي هاجمت ابنته كانت شكلًا خطيرًا من **الملاريا** (*Plasmodium malariae*)، يتميز بذرى عنيفة من الحمّى والقشعريرة تعود كل ثلاثة أيام (كل «يوم رابع» بطريقة العدّ الرومانية، التي كانت تحسب اليوم الأول والأخير).

2. **القديس باولينوس النولي (354–431):** «باولينوس» الذي شُفي من علّة خطيرة في العين (على الأرجح قرحة في القرنية أو ساد ناتج من إصابة، لُمست بـ*peniculus*، وهو إسفنجة أو فرشاة صغيرة كان يستخدمها الأطباء القدامى) ليس سوى **بونتيوس ميروبيوس باولينوس**، عضو في مجلس الشيوخ واسع الثراء وُلد في بوردو، وحاكم كامبانيا، وأعزّ صديق لمؤلفنا سولبيسيوس ساويروس! وقد ترك باولينوس نفسه رواية عن هذا الشفاء في كتاباته؛ وبعد قليل باع ثروته الهائلة ليعطيها للفقراء وذهب ليعيش في نولا، في جنوب إيطاليا، فصار من أعظم الشعراء المسيحيين في العصور القديمة.

الفصل العشرون

مأدبة الإمبراطور ماغنوس مكسيموس: الكأس تُناوَل للكاهن قبل الإمبراطور

أصل الآن إلى حادثة قد تبدو أصغر بجانب معجزات عظيمة كتلك — مع أن رؤية أسقف لا ينحني لتملّق البلاط الإمبراطوري، في الأزمنة المنحطة الفاسدة التي نعيشها اليوم، تكاد تكون معجزة أعظم من كل ما عداها! حين اجتمع عدد كبير من الأساقفة من مقاطعات مختلفة في بلاط الإمبراطور مكسيموس — وهو رجل قاسٍ، امتلأ غطرسة بعد انتصاره في الحرب الأهلية — كان مثيرًا للشفقة أن ترى الخنوع الذي كانوا جميعًا يطيعونه به، منزلين كرامة الأساقفة إلى دور مجرد متملّقين للسلطة. مارتينوس وحده حافظ على موقف الرسول الثابت بلا مساس! فحتى حين كان عليه أن يطلب من الإمبراطور الرأفة بأحد، كان يتكلم بسلطان يجعله يبدو كمن يُصدر أمرًا لا كمن يلتمس معروفًا. ومهما كرر مكسيموس دعوته إلى العشاء معه على المائدة الإمبراطورية، كان مارتينوس يرفض دائمًا، قائلًا بصراحة إنه لا يستطيع أن يجلس إلى مائدة رجل أزاح إمبراطورين شرعيين — فانتزع من أحدهما العرش ومن الآخر حياته نفسها.

وحاول مكسيموس أن يبرر نفسه بكل وسيلة: أكد له أنه لم يستولِ على السلطة عن طموح شخصي، بل دفعه الجنود، بمشيئة الله، إلى أن يحكم ويدافع عن نفسه بقوة السلاح؛ وأضاف أن نصرًا سريعًا كنصره لا يمكن إلا أن تكون يد الله وراءه، وأن أحدًا من أعدائه لم يُقتل خارج ساحة المعركة. وألحّ كثيرًا، بين

التبريرات والتوسلات، حتى وافق مارتينوس في النهاية على الذهاب إلى العشاء — فغمر الإمبراطورَ الفرحُ لأنه أقنعه أخيرًا.

بدت المأدبة كيوم عيد كبير وجمعت إلى المائدة أعظم شخصيات الإمبراطورية: كان هناك إيفوديوس، وهو والٍ وقنصل في آن واحد، ومن أعدل الرجال الذين عاشوا يومًا؛ وكان هناك أيضًا كونتان يملكان أعلى السلطات العسكرية، وهما أخو الإمبراطور وعمّه. وبين هذين الأخيرين أجلسوا الكاهن الذي كان يرافق مارتينوس؛ أما مارتينوس نفسه فأُجلس على مقعد منخفض وُضع بجانب مكان الإمبراطور تمامًا.

وفي منتصف العشاء، كما تقتضي مراسم البلاط، حمل الساقي كأسًا من الخمر إلى الإمبراطور. فأمر مكسيموس، وهو ممتلئ إجلالًا، بأن تُقدَّم أولًا إلى الأسقف القديس، لأنه كان يتوق كثيرًا إلى أن يتسلّم الكأس بعد ذلك من يدي مارتينوس مباشرة. لكن مارتينوس، بعد أن ارتشف رشفة، مدّ الكأس إلى الكاهن الذي جاء معه! فقد رأى أن لا أحد في تلك القاعة أجدر بأن يشرب مباشرة بعد أسقف، وأنه سيخون ضميره إن قدّم الإمبراطور نفسه أو أقاربه على كاهن.



في المأدبة الإمبراطورية في ترير، وهو جالس على مقعد صغير بجانب الإمبراطور ماغنوس مكسيموس، يشرب مارتينوس من الكأس الملكية ويناولها أولًا للكاهن المرافق له قبل أن يعطيها للعاهل، وسط ذهول البلاط.

وقد يبدو الأمر غير معقول، لكن الإمبراطور وكل المدعوين أُعجبوا بتلك الحرية في الروح إلى حد أنهم أحبّوا البادرة نفسها التي وضعتهم في المرتبة الثانية! وفي وقت قصير لم يكن في القصر كله حديث سوى هذا: على مائدة الإمبراطور نفسه، تجرّأ مارتينوس على فعل ما لم يكن أي أسقف آخر يجرؤ عليه حتى في ولائم حكّام من الدرجة الثانية.

ولاحقًا، وقبل اندلاع الحرب بزمن طويل، أنذر مارتينوس مكسيموس نفسه بما سيحدث له إن مضى في خطته لغزو إيطاليا ومهاجمة الإمبراطور الشاب فالنتينيانوس: سيربح المعركة الأولى ضده، لكنه سيموت بعد وقت قصير. وهذا بالضبط ما رأيناه نحن يحدث: فما إن دخل مكسيموس إيطاليا حتى اضطر فالنتينيانوس إلى الفرار؛ لكنه بعد نحو سنة أعاد تنظيم جيشه، وحاصر مكسيموس داخل أسوار أكويليا، وأسره وأمر بإعدامه.

سياق الراوي: السياسة الرومانية العليا وخرق المراسم في تريير

هذا المشهد، الذي يدور في القصر الإمبراطوري في تريير نحو سنة **385 أو 386**، هو من أشهر اللحظات في العلاقة بين السلطة السياسية والكنيسة في العصور القديمة:

1. **من كان «الإمبراطوران» اللذان تكلم عنهما مارتينوس؟** كان **ماغنوس مكسيموس** قائدًا عسكريًا وُلد في هسبانيا ونادت به قوات بريطانيا إمبراطورًا سنة 383. فعبر بحر المانش، وهزم الإمبراطور الشرعي الشاب **غراتيانوس** وأمر بقتله (*وهو الذي انتزع منه حياته*)، وضغط على أخيه غير الشقيق، المراهق **فالنتينيانوس الثاني** (*وهو الذي انتزع منه جزءًا من الإمبراطورية*). وكل الشخصيات الجالسة إلى المائدة تاريخية: فقد كان **فلافيوس إيفوديوس** والي بريتوريوم بلاد الغال وقنصلًا رومانيًا سنة 386.
2. **فضيحة الكأس (*patera*):** بحسب قواعد البلاط الإمبراطوري الصارمة، كان الشرب أولًا من كأس الإمبراطور وإعادتها إليه شخصيًا أعظم تكريم يمكن أن يناله مدعوّ. وحين ناول مارتينوس الكأس لكاهنه البسيط (*presbyter*)، متخطيًا الإمبراطور والقنصل والكونتات الإمبراطوريين، أكّد من دون أن ينطق بكلمة أن أمور الروح لا تنحني أمام السلطة العسكرية أو السياسية.
3. **ماذا ذهب مارتينوس ليفعل في بلاط مكسيموس؟** من كتاب آخر لسولبيسيوس ساويروس (*التاريخ*)، نعرف أن مارتينوس ذهب إلى تريير ليحاول إنقاذ الأسقف الهسباني بريسكيليانوس وتلاميذه من الموت، وقد اتهمهم بالهرطقة أساقفة آخرون من أهل المكائد — مجاهدًا إلى أقصى حد ليمنع الدولة من إعدام الناس بسبب مسائل دينية.

الفصل الحادي والعشرون

أحاديث مع الملائكة والشيطان بقرن الثور الملطّخ بالدم

ومن المعروف يقينًا أيضًا أن مارتينوس كان يرى الملائكة كثيرًا، بل يتحدث معهم مباشرة. أما الشيطان فكان يراه أمامه بوضوح شديد حتى إنه لم يكن يستطيع أبدًا أن يمرّ من دون أن يُلحَظ، سواء ظهر على

حقيقته أو اتخذ أشد الأقنعة تنوعًا ليؤذي. ولما أدرك الشيطان أنه لا حيلة قادرة على خداع مارتينوس، انتقم بأن صار يظهر له في كل حين ومكان لمجرد أن يشتمه، ما دام لا يستطيع أن ينصب له الفخاخ.

ذات يوم اقتحم قلّاية مارتينوس مطلقًا زئيرًا بشعًا، حاملًا في يده اليمنى، وهي ملطّخة كلها بالدم، قرن ثور دامٍ. وصاح به، مبتهجًا بالمصيبة التي سبّبها للتوّ: «أين قوتك الآن يا مارتينوس؟ لقد قتلت للتوّ واحدًا من جماعتك!»

فنادى مارتينوس الرهبان فورًا، وأخبرهم بما قاله الشيطان للتوّ، وأرسلهم ليمرّوا على القلالي كلها واحدة واحدة ليروا من الغائب أو من أصابه مكروه. فعادوا بعد قليل ليقولوا إن الرهبان كلهم بخير، لكن فلاحًا مستأجَرًا باليوم لجلب الحطب في عربة ذهب إلى الغابة ذلك الصباح. فطلب مارتينوس في الحال من بعض الإخوة أن يذهبوا للبحث عنه بأقصى سرعة. وغير بعيد عن الدير وجدوا المسكين ممددًا على الأرض، وهو يكاد يكون ميتًا. وبالقليل من النفَس الذي بقي له شرح للرهبان ما حدث: بينما كان يشدّ السيور الجلدية التي ارتخت على نير الثيران، هزّ أحد الحيوانين رأسه بقوة وغرز قرنًا في أصل فخذه. وبعد لحظات قليلة مات.

ولكل قارئ أن يتأمل في الأسباب التي من أجلها سمح الله بأن تكون للشيطان يد في مصيبة كهذه. أما المدهش في مارتينوس فهو الوضوح الذي كان يعرف به، في هذه الواقعة وفي كثير مما يشبهها، الأمور قبل حدوثها بزمن طويل، أو يتلقى في الحال تنبيهًا داخليًا ليخبر الإخوة بما يجري في مكان بعيد.

سياق الراوي: عامل الحطب المياوم وصراحة سولبيسيوس أمام المأساة

في هذا الفصل تفصيلان إنسانيان جميلان جدًا:

1. **«واحد من جماعتك»:** لأن رهبان Marmoutier كانوا يعيشون معتزلين في الصلاة (والأصغر سنًّا يقضون أيامهم في نسخ الكتب)، كان الدير يستأجر عمالًا ريفيين من المنطقة (*mercede conducti*، يُدفع لهم باليوم) لجلب الحطب من الغابة في عربات تجرّها الثيران. ومع أن ذلك العامل البسيط لم يكن راهبًا، كان جزءًا من عائلة مارتينوس الروحية.
2. **لا أجوبة سهلة عن الألم:** أمام الموت المأساوي لذلك الرجل في حادث عمل، لا يحاول سولبيسيوس ساويروس أن يخترع درسًا وعظيًا ولا أن يلوم الضحية. بل له من النزاهة ما يجعله يترك السؤال مفتوحًا: «*ولكل قارئ أن يتأمل في الأسباب التي من أجلها سمح الله بأن تكون للشيطان يد في مصيبة كهذه*» (*Viderit is, quo judicio Domini*...).

الفصل الثاني والعشرون

أقنعة جوبيتر وميركوريوس وفينوس — ووعد الغفران للشيطان نفسه

وفي مناسبات كثيرة أخرى، محاولًا أن يوقع القديس بألف حيلة، ظهر الشيطان أمام عينيه في أشد الهيئات اختلافًا: تارة يتخذ شكل جوبيتر، وفي أكثر الأحيان شكل ميركوريوس، وليس نادرًا أن يظهر أيضًا بملامح فينوس أو مينيرفا. ومن دون أن يفقد هدوءه قط، كان مارتينوس يدافع عن نفسه دائمًا بإشارة الصليب وبالصلاة.

وكثيرًا ما كانت تُسمع أيضًا زُمَر من الشياطين تصيح في وجهه بشتائم وقحة؛ لكن لأنه كان يعلم أن ذلك كله ليس إلا أكاذيب لا رأس لها ولا ذنب، لم يكن مارتينوس يلتفت إلى الاتهامات. وروى بعض الرهبان أنهم سمعوا ذات مرة شيطانًا يواجه مارتينوس بنبرة متعجرفة، سائلًا إياه لماذا قبل في الدير بعض الإخوة الذين، في الماضي، لطّخوا نعمة المعمودية بأخطاء وخطايا جسيمة قبل أن يتوبوا — وأخذ يسرد، واحدة واحدة، الخطايا القديمة لكل منهم.

وقال أولئك الرهبان إن مارتينوس أجابه بحزم بأن أخطاء الماضي تُمحى حين يغيّر الإنسان حياته بصدق، وأن من يكفّ عن الخطيئة له، برحمة الله، حق في الغفران. فلما ردّ الشيطان بأن كبار الخطأة لا يستحقون الرأفة وأن الله لا يغفر من جديد لمن يسقطون بعد المعمودية، يُروى أن مارتينوس أجابه بهذا الجواب المذهل:

«لو أنك أنت نفسك، أيها الشقي، كففت عن اضطهاد البشر وتبت عن الشر الذي فعلته، حتى الآن، ويوم الدينونة الأخيرة قريب جدًا، فإن لي من الثقة بالرب يسوع المسيح ما يجعلني أعدك بغفران الله!»

يا لها من جرأة مدهشة في الثقة بصلاح الله! فحتى من دون أن يملك السلطة لضمان وعد كهذا، أظهر مارتينوس بتلك الكلمات اتساع قلبه. وما دمنا نتكلم عن الشيطان وأشراكه، فمن المفيد أن أروي هنا حادثة جرت في مكان قريب جدًا: ومع أنها لم تحدث لمارتينوس مباشرة، فهي تكشف بوضوح قوته الروحية وتستحق أن تُدوَّن، ليكون الجميع على حذر إن طرأت يومًا حالة مشابهة.

سياق الراوي: الآلهة الرومانية القديمة وأجرأ جملة قالها القديس مارتينوس

يحمل هذا الفصل لحظتين لافتتين من روحانية القرن الرابع:

1. **جوبيتر وميركوريوس وفينوس ومينيرفا:** عند مسيحيي العصور القديمة لم تكن آلهة البانثيون الروماني مجرد شخصيات شعرية من الميثولوجيا؛ بل كانت تُعَدّ قوى روحية خادعة تستخدم تلك الأقنعة لتجرّب الناس — جوبيتر بالطموح إلى السلطة، وميركوريوس بالدهاء والمال، وفينوس بالإغراء، ومينيرفا بالغرور الفكري.

2. **وعد الشيطان نفسه بالغفران:** في زمن مارتينوس كانت في الكنيسة أوساط شديدة التزمّت ترى أن من يرتكب خطيئة جسيمة بعد المعمودية لا يمكن أن يُغفر له أبدًا من جديد. ومارتينوس لا يكتفي بأن يستقبل في الدير بذراعين مفتوحتين رجالًا لهم ماضٍ صعب، بل يذهب إلى حد أن يقول للشيطان نفسه إنه حتى هو كان المسيح سيغفر له لو تاب! كان ذلك تأكيدًا شديد الجرأة لرحمة الله اللامتناهية (قريبًا من فكر اللاهوتي أوريجانوس)، حتى إن سولبيسيوس ساويروس يشعر بالحاجة إلى أن يضيف في الحال تحفّظًا حذرًا من أجل قرّائه الأكثر تمسكًا بالعقيدة القويمة: «*فحتى من دون أن يملك السلطة لضمان وعد كهذا، أظهر مارتينوس بتلك الكلمات اتساع قلبه.*»

الفصل الثالث والعشرون

قصة كلاروس، والنبي الكاذب أناتوليوس، والثوب الذي تبخّر في الهواء

كان هناك شاب من أسرة مرموقة جدًا اسمه كلاروس — سيم لاحقًا كاهنًا وهو يرقد اليوم في سلام الله بعد ميتة مقدسة — ترك كل شيء وراءه ليذهب ويعيش قرب مارتينوس، فبلغ سريعًا إيمانًا عميقًا وحياة مثالية. وكان كلاروس قد بنى صومعة صغيرة قرب دير الأسقف، حيث كان عدة رهبان يعيشون معه. وذات يوم طرق بابهم شاب اسمه أناتوليوس: قال إنه راهب، وتظاهر بأنه أكثر الناس تواضعًا وبراءة في العالم، وانتهى به الأمر إلى البقاء ليعيش هناك في جماعة مع الآخرين.

وبعد مدة بدأ يقول لرفاقه إنه يتلقى زيارات منتظمة من ملائكة يأتون ليتحدثوا معه. ولأن أحدًا لم يصدّقه، وجد طريقة ليُبهر عدة رهبان بعدد من الظواهر الغريبة. ولم يمضِ وقت طويل حتى صار يعلن صراحة أن الملائكة يروحون ويجيئون باستمرار برسائل بينه وبين الله، ويطالب بأن يعامَل كنبي حقيقي. لكن كلاروس لم يدع نفسه ينخدع قط. فغضب أناتوليوس لأنه لم يستطع إقناعه، وأخذ يهدده بغضب الله وبعقوبات وشيكة لأنه يشكّ في كلام قديس.

وأخيرًا، ذات يوم، خرج بهذا الإعلان الاحتفالي: «اعلموا أن الرب سيرسل إليّ هذه الليلة ثوبًا أبيض من السماء! غدًا سأمشي بينكم لابسًا إياه، وهناك يكون لكم البرهان على أنني أحمل في داخلي قوة الله، لابسًا ثوبًا يأتي من يدي الله نفسه!»

وغنيّ عن القول إن الجماعة كلها كانت في حال من الترقب الشديد، تنتظر ما سيحدث. ونحو منتصف الليل بدا الدير كله كأنه يهتزّ حتى أساساته، كأن أناسًا يدقّون الأرض بأقدامهم بقوة. ومن قلّاية أناتوليوس كانت تخرج ومضات متكررة من ضوء ساطع، يرافقها صوت خطوات مسرعة تروح وتجيء وهمهمة

مبهمة لأصوات كثيرة. وفجأة ساد الصمت؛ ففتح أناتوليوس الباب، ونادى أحد الرهبان في الخارج، واسمه ساباتيوس، وأراه الثوب الذي يلبسه.

فركض ساباتيوس، فاغرًا فمه، ليوقظ الآخرين. وجاء كلاروس نفسه في الحال ليرى ما يجري؛ فأحضروا مصباحًا مضاءً وأخذوا جميعًا يفحصون الثوب بالتفصيل. كان القماش ناعمًا نعومة خارقة، ناصع البياض ومحفوفًا بأشرطة من الأرجوان اللامع — لكن مهما دققوا النظر، لم يستطع أحد أن يعرف من أي ليف أو أي صوف صُنع. ومع ذلك، بالعين وبلمس الأصابع معًا، بدا بلا أدنى شك ثوبًا حقيقيًا.

وبحكمة، طلب كلاروس من الإخوة أن يقضوا بقية الليل مصلّين ليُريهم الله بوضوح ما يكمن خلف هذا كله؛ وهكذا بقوا حتى الفجر، يرتّلون الأناشيد والمزامير. وما إن طلعت الشمس حتى أمسك كلاروس بيد أناتوليوس اليمنى، عازمًا على أن يقوده إلى مارتينوس، واثقًا تمامًا بأن أي حيلة من حيل الشيطان لا تستطيع أن تخدع عيني الأسقف. وفي تلك اللحظة ذُعر البائس: أخذ يتشبث بالأرض ويصيح بأن عنده أوامر صريحة من السماء بألّا يمثُل أمام مارتينوس! وحين أمسك به الرهبان الآخرون ليأخذوه بالقوة، تبخّر الثوب في الهواء في طرفة عين، بين أيدي من كانوا يمسكون به تمامًا.

فمن يستطيع أن يشكّ في أن قوة مارتينوس الروحية ظهرت هنا أيضًا، إلى حد أن الشيطان لم يستطع حتى أن يُبقي على خداعه حالما أدرك أنه سيواجه نظرة الأسقف؟

> **سياق الراوي: الغرور الخفيّ وثوب أعضاء مجلس الشيوخ الروماني**
>
> كان **كلاروس** من أحبّ تلاميذ مارتينوس إليه (سيموت قبل معلّمه بأيام قليلة، في نوفمبر 397، وقد ذكره سولبيسيوس بتأثر كبير في رسائله). ولاحِظ تفصيلًا كاشفًا في ثوب أناتوليوس «السماوي»: كان «*ناصع البياض ومحفوفًا بأشرطة من الأرجوان اللامع*» (*candore eximio, micanti purpura*). ففي المجتمع الروماني كان الثوب الأبيض ذو الخطوط الأرجوانية (*tunica laticlavia*) اللباس الخاص بأعضاء مجلس الشيوخ وكبار القضاة دون غيرهم!
>
> بعبارة أخرى، حتى وهو منزوٍ في دير فقير، فضحت أناتوليوسَ رغبتُه المكبوتة في الأهمية حين تخيّل أن الله يُلبسه لباس عضو في مجلس الشيوخ الروماني. ولاحِظ كيف ينجلي كل شيء في Marmoutier: لا عيون الرهبان ولا أيديهم، على ضوء المصباح، استطاعت كشف الوهم، لكن مجرد احتمال مواجهة نظرة مارتينوس الهادئة الصافية كان كافيًا لينهار العرض كله!

الفصل الرابع والعشرون

المسحاء الكذبة في هسبانيا والشيطان في لباس إمبراطور: «لن أعترف بالمسيح من دون علامات الصليب»

وقد لوحظ أنه ظهر في تلك السنوات نفسها في هسبانيا شاب، بعد أن نال شهرة بين الشعب بعجائب مختلفة، انتفخ غرورًا إلى حد أنه بدأ يقول إنه النبي إيليا. ولأن كثيرين صدّقوه من دون أن يطرحوا أسئلة، خطا خطوة أبعد وصار يعلن أنه المسيح نفسه — فخدع من الناس عددًا كبيرًا حتى إن أسقفًا اسمه روفوس جثا ليسجد له كأنه الرب، وهي فضيحة كلّفته لاحقًا منصبه الأسقفي. وأخبرنا عدة إخوة أيضًا أن رجلًا آخر ظهر، في الوقت نفسه تمامًا، في الشرق مدّعيًا أنه القديس يوحنا. وحين نرى أنبياء كذبة من هذا النوع يظهرون في كل مكان، نفهم جيدًا أن مجيء المسيح الدجّال لا يمكن أن يكون بعيدًا، وأنه يمهّد الطريق منذ الآن بواسطة هؤلاء الأشخاص.

لكن لا يسعني ألّا أروي هنا بأي دهاء حاول الشيطان أن يخدع مارتينوس نفسه في نحو ذلك الوقت. ذات يوم، بينما كان مارتينوس يصلّي وحده في قلّايته، ظهر واقفًا أمامه شخص مغمور ومحاط بوهج من نور أرجواني — مدروس حتى آخر تفصيل ليُبهر الناظر بذلك البريق الزائف. كان يلبس حلّة إمبراطورية، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالأحجار الكريمة، وفي قدميه حذاء مغشّى بالذهب، وكانت له هيئة هادئة وابتسامة مشرقة حتى إنه يشبه أي شيء إلا الشيطان.

ولما وجد مارتينوس نفسه وجهًا لوجه مع ذلك الظهور المبهر، بقي في البداية بلا ردّ فعل، ولمدة غير قصيرة لم ينطق أحد بكلمة. وفي النهاية كان الشيطان هو من كسر الصمت: «اعرف يا مارتينوس من هو الواقف هنا أمامك! أنا المسيح: ولأنني على وشك أن أنزل إلى الأرض، أردت أن أظهر لك أولًا.»

فبقي مارتينوس صامتًا، لا يجيبه بشيء. فعاد الشيطان إلى الهجوم، وهو أشدّ جرأة: «يا مارتينوس، لماذا تتردد في أن تؤمن وأنت تراني بعينيك؟ أنا المسيح!»

عندئذ، وقد أناره الروح القدس في داخله ليفهم أن أمامه الشيطان لا الرب، أجابه مارتينوس: «الرب يسوع لم يقل قط إنه سيعود لابسًا الأرجوان وعلى رأسه تاج ملكي. لن أصدّق أبدًا أن المسيح قد جاء ما لم أره بالهيئة والملامح التي تألم بها في آلامه، حاملًا في جسده علامات الصليب!»



في عتمة قلّايته الخفيفة، أمام الشيطان المتّشح بنور أرجواني وحلّة ملكية وحذاء ذهبي وتاج من الأحجار الكريمة، يجيب مارتينوس: «لن أصدّق أبدًا أن المسيح قد جاء ما لم أره بالهيئة التي تألم بها في آلامه، حاملًا في جسده علامات الصليب!»

وما إن سمع هذه الكلمات حتى تبدد ذلك الشخص في ثانية كالدخان، تاركًا القلّاية ممتلئة برائحة كريهة مقززة إلى حد أنه لم يبقَ أدنى شك في أنه كان الشيطان فعلًا. ولكي لا يظن أحد أن هذه أسطورة مختلقة، أقول فورًا إنني سمعت هذه القصة، تمامًا كما رويتها الآن، من فم مارتينوس نفسه.

سياق الراوي: ذروة الكتاب — ضد مسيح في لباس إمبراطور

عند كثير من المؤرخين والمفكرين، هذا الفصل الرابع والعشرون — الذي رواه مارتينوس مباشرة لسولبيسيوس ساويروس — هو أعمق صفحات السيرة كلها وأكثرها راهنية.

لاحِظ أولًا ذكر **هسبانيا** (شبه الجزيرة الإيبيرية الحالية): ففي أواخر القرن الرابع ساد في المقاطعات الإيبيرية جوّ محموم من ترقّب نهاية العالم، إلى حد أن أسقفًا محليًا اسمه روفوس ترك نفسه ينجرف وراء دجّال يدّعي أنه المسيح.

لكن لاحِظ قبل كل شيء **الثياب التي يختارها الشيطان لينتحل شخصية يسوع**: حلّة أرجوانية (*vestis regia*)، وإكليل من ذهب وأحجار كريمة (*diadema*)، وحذاء مكسوّ بالذهب (*calcei auro illiti*). قطعةً قطعة، كان ذلك اللباس الاحتفالي لأباطرة الرومان في القرن الرابع! فمع تحوّل الإمبراطورية إلى المسيحية رسميًا، بدأ كثير من الأساقفة المعتادين على القصور يتخيلون المسيح ملكًا إمبراطوريًا، كله ذهب وانتصار أرضي. وجواب مارتينوس يعبر القرون كوميض برق: مسيحٌ مليء بالترف والسلطة، منقطع عن

> المتألمين وبلا جراح الصليب، هو تزوير. فالوجه الحقيقي للمسيح يبقى عند مارتينوس وجه ذلك الفقير المتجمد من البرد الذي أعطاه نصف ردائه عند أبواب أميان.

الفصل الخامس والعشرون

زيارة المؤلف للقديس مارتينوس: الأسقف الذي غسل قدمَي كاتب سيرته

والحق أنني كنت أسمع منذ زمن طويل عن إيمان مارتينوس وطريقة حياته وقوته الداخلية، وكنت أحمل في داخلي رغبة عظيمة في أن ألقاه شخصيًا؛ فسلكت الطريق بفرح هائل، في رحلة قمت بها خصيصًا لزيارته. ولأنني كنت أصلًا أُضمر الرغبة في كتابة سيرته، اغتنمت الفرصة لأسأله مباشرة عن بعض هذه الأمور — بقدر ما سمح لي تواضعه بأن أسأل — وجمعت الباقي ممن شهدوا الأحداث أو عرفوها عن قرب.

يصعب أن تصدّق التواضع والمودة اللذين استقبلني بهما في تلك المناسبة! لقد تأثر بصدق وامتلأ فرحًا في الرب حين رأى أننا نقدّره إلى حد أننا انطلقنا عمدًا لنراه فقط. وأنا الخاطئ المسكين — أكاد أخجل من روايتها! — بعد أن شرّفنا بدعوتنا إلى الأكل على مائدته، كان هو نفسه من صبّ الماء على يديّ قبل الطعام؛ وعند حلول المساء جثا هو نفسه ليغسل أقدامنا! لم تكن لي حتى الشجاعة لأرفض أو لأمنعه: فقد كانت تتجلى فيه سلطة معنوية عظيمة إلى حد أن عصيانه بدا لي خطأ يكاد يكون جسيمًا.



في آخر العصر في Marmoutier، يجثو الأسقف المسنّ مارتينوس على الأرض الحجرية ليغسل بيديه القدمين اللتين أتعبهما السفر، قدمَي كاتب سيرته وصديقه سولبيسيوس ساويروس.

وفي كل الأحاديث التي أجراها معنا، لم يكلّمنا إلا عن أمر واحد: كم هو ضروري أن نترك أوهام العالم وأثقال هذه الحياة لنتبع الرب يسوع بيدين حرّتين وقلب خفيف. وكان يضع أمامنا مرة بعد مرة، كأفضل مثال حيّ في أيامنا، باولينوس العظيم — الذي تكلمت عنه قبل قليل — وقد باع أملاكًا لا تُحصى ليتبع المسيح، وكان يكاد يكون الرجل الوحيد من جيلنا الذي نفّذ بالحرف كل ما يطلبه الإنجيل. إليه يجب أن ننظر، كان مارتينوس يلحّ، وطريقه يجب أن نسلك! وكان يقول إن عصرنا محظوظ جدًا بأن له برهانًا حيًّا على إيمان وشجاعة كهذين: فبيعه كل شيء ليعطي الفقراء كما طلب يسوع، أثبت رجل واسع الثراء مثل باولينوس عمليًا أنه يمكن فعل ما كان الجميع يظنونه مستحيلًا.

وأيّ ثبات، وأيّ نبل كان في كلام مارتينوس وحديثه! أيّ صفاء ذهن مدهش، وأيّ سرعة وأيّ وضوح كان له في شرح أصعب مقاطع الكتاب المقدس! ولأنني أعلم أن كثيرين يشككون في هذا — وقد رأيت أنا نفسي أناسًا يبدون امتعاضهم حتى حين كنت أنا من يخبرهم — أُقسم أمام يسوع والإيمان الذي نتشاركه أنني لم أسمع قط في حياتي من فم أحد حكمة كهذه، ولا ذكاءً كهذا، ولا كلامًا بهذا الوضوح وهذا النقاء. صحيح أن مدح طريقة كلامه يبدو، بجانب عظمة مارتينوس الأخلاقية، أمرًا صغيرًا؛ لكن المدهش مع ذلك أن رجلًا لم يرتد المدارس الكبرى قط لم تنقصه حتى هذه الموهبة.

سياق الراوي: حين تغيّر الزيارة حياة الكاتب

في هذا الفصل يدخل **سولبيسيوس ساويروس** نفسه القصة بصيغة المتكلم! بين سنتَي **394 و396 م**، سافر سولبيسيوس — وكان يومها أرملًا شابًا من أسرة واسعة الثراء في أكيتانيا، درس القانون والخطابة في بوردو — إلى تور ليلتقي الأسقف الشيخ مارتينوس (الذي كان عمره حينها نحو 60 أو 80 سنة).

وبالنسبة إلى أرستقراطي روماني، أن يصل من سفر فيرى سيد البيت — وهو فوق ذلك أسقف موقَّر — يجثو على الأرض ليمسح الغبار عن صندله ويغسل قدميه (وهي خدمة مخصصة لأدنى العبيد!) كان زلزالًا داخليًا غيّر حياته إلى الأبد: فبعد عودته إلى بيته ترك سولبيسيوس هو أيضًا مسيرته العامة ليؤسس جماعة رهبانية في ضيعته في بريموليا كوم (Primuliacum).

ولاحِظ أيضًا دفاع سولبيسيوس الحارّ عن ذكاء مارتينوس: فأساقفة بلاد الغال النخبويون كانوا ينظرون إليه باستعلاء لأنه *homo illiteratus* — «رجل غير متعلّم»، أي جندي سابق نشأ في الثكنات ولم يدرس البلاغة الكلاسيكية في المدارس الرومانية الكبرى. وسولبيسيوس، وهو من ألمع كتّاب زمنه، يحرص على أن يُقسم لقرّائه أنه لم يسمع قط أحدًا يعبّر عن نفسه بمثل وضوح ذلك الجندي العجوز ونقاء لغته وعمقه!

الفصل السادس والعشرون

الصورة الداخلية: سندان الحدّاد وصبره على كهنته أنفسهم

يقترب هذا الكتاب من نهايته وقد حان وقت الختام — لا لأنه لم يبقَ ما يُروى عن مارتينوس، بل لأنني أنا نفسي، كأولئك الشعراء الرديئين الذين ينقطع نفَسهم في الشوط الأخير من عملهم، أشعر بأن عظمة الموضوع تسحقني.

فإن كانت الأحداث الظاهرة في حياته يمكن بعدُ أن توضع في كلمات، أحسنًا أم أسأنا، فحين نأتي إلى حياته الداخلية، ونظام يومه الصامت، وذلك القلب المتحد بالله على الدوام، أقولها بكل صراحة: لا توجد كلمات بشرية تكفي لوصفها. ذلك الثبات الهادئ المتزن في أصوامه، وذلك الجلَد في الليالي التي يقضيها ساهرًا يصلّي كأنها نهار، لا يضيّع دقيقة واحدة بعيدًا عن خدمة الله، ولا يقع في البطالة ولا يتيه في شؤون الدنيا، لا يأكل ولا ينام إلا الحد الأدنى الذي يُبقي الجسد واقفًا — أعترف بلا مبالغة أنه حتى هوميروس نفسه، كما يقول المثل، لو عاد من عالم الأموات، لما استطاع أن يصوّر هذا كله كما يستحق، لفرط ما تتجاوز حياة مارتينوس ما يستطيع كتاب أن يحويه.

لم تمرّ ساعة واحدة، ولا لحظة قصيرة، من دون أن يكون في الصلاة أو مستغرقًا في القراءة؛ بل حتى حين كان يقرأ أو يقوم بمهمة أخرى، لم يكن يفصل قلبه عن الصلاة قط. كان يذكّر بالحركة المعتادة عند الحدّادين الذين، وهم يشكّلون الحديد المحمّى، يضربون بين حين وآخر ضربة خفيفة على السندان الفارغ ليريحوا الذراع من دون أن يفقدوا الإيقاع: وكذلك مارتينوس، حتى حين كان يبدو مشغولًا بأمور أخرى، كان يواصل الصلاة في داخله طوال الوقت.

يا له من رجل خارق ومضيء، عاجز عن التصنّع أو الخبث! لم يُدِن أحدًا قط، ولم يردّ بالمثل قط على من آذوه. وكان قد اكتسب صبرًا عظيمًا أمام الإهانات حتى إنه، مع كونه أسقف الأبرشية، كان حتى أدنى رجال الإكليروس مرتبة يعاملونه كثيرًا بقلة احترام ولا يصيبهم شيء: فلم يحدث قط أن عزل أحدًا منهم عن منصبه لهذا السبب أو كفّ عن معاملتهم بكل مودة.

> **سياق الراوي: إيقاع السندان والإهانات داخل كنيسته نفسها**
>
> يترك لنا هذا الفصل واحدة من أجمل الصور في الأدب القديم: **سندان الحدّاد** (*incus fabrorum*). ففي ورش الحدادة القديمة (وحتى وقت قريب جدًا في الورش التقليدية!)، بينما كان الحدّاد يقلّب قطعة الحديد في النار بملقطه، كان يترك المطرقة تنقر نقرة مرتخية موزونة على حديد السندان مباشرة حتى لا ينكسر إيقاع ذراعه. فالصلاة عند مارتينوس، في نظر سولبيسيوس، لم تكن مهمة منفصلة: كانت نبض القلب الدائم في وسط الحياة كلها.
>
> ومن كان «أدنى رجال الإكليروس مرتبة» هؤلاء (*infimi clerici*) الذين كانوا يهينون مارتينوس داخل أبرشية تور نفسها من دون أن يعاقبهم؟ أشهر حالة (رواها سولبيسيوس لاحقًا في *الحوارات*) كانت حالة كاهن شاب اسمه **بريكتيوس** (*Brice*)، كان يسخر بصوت عالٍ من رؤى مارتينوس وثيابه الفقيرة. وحين طلب الرهبان الساخطون من الأسقف أن يطرده، اكتفى مارتينوس بأن أجاب: *«إن كان المسيح قد احتمل يهوذا، فلماذا لا أحتمل أنا بريكتيوس؟»* — وأضاف أن بريكتيوس سيتوب يومًا ما وسيخلفه أسقفًا على تور، وهذا ما حدث فعلًا سنة 397!

الفصل السابع والعشرون

الخاتمة: وجه مضيء والجواب على الأساقفة الحاسدين

لم يرَ أحد مارتينوس قط يفقد أعصابه، ولم يره أحد قط خارجًا عن طوره، أو محطَّمًا من الحزن، أو مستغرقًا في الضحك: كان دائمًا الرجل الهادئ نفسه، وعلى وجهه فرح مضيء إلى حد أنه كان يبدو كأنه يعيش منذ الآن فوق الحالة البشرية. لم يكن على شفتيه سوى اسم المسيح؛ ولم يكن في قلبه مكان إلا

للصلاح والسلام والرحمة. وكثيرًا ما كان يبكي حتى على خطايا من يقولون عنه أقبح الكلام من وراء ظهره، ومن كانوا، وهو يعيش هادئًا في زاويته لا يؤذي أحدًا، ينهشونه بألسنة الأفاعي السامة.

والحقيقة أننا نحن أنفسنا عرفنا بعض أولئك الرجال الممتلئين حسدًا لحياته ونزاهته — أناس كانوا يكرهون أن يروا في مارتينوس الصفات التي لا يملكونها في أنفسهم ولا يملكون الشجاعة لتقليدها. وأكثر ما يُحزن ويُخجل — ومجرد كتابته مؤلم! — أن أولئك المضطهِدين القليلين كانوا كلهم تقريبًا أساقفة! لكن لا فائدة من ذكر أسمائهم هنا، مهما راحوا ينبحون من حولنا: يكفي تمامًا أنه إن قرأ أحدهم هذه الصفحات ورأى أن الوصف ينطبق عليه، امتلأ خجلًا؛ فإن أخذ يصيح واستشاط غضبًا، كان يعترف من تلقاء نفسه بأنه هو المقصود بكلامنا — وربما كنا في الواقع نقصد آخرين!

وفي ما عدا ذلك، إن كان هناك أناس من هذا الصنف يكرهوننا نحن أيضًا لأننا ندافع عن رجل مثل مارتينوس، فنحن نقبل تلك العداوة شرفًا لنا. وأنا على يقين مطلق بأن هذا الكتاب الصغير سيُفرح كل الناس الطيبين ذوي الإيمان الصادق. أما الآخرون، فإن قرأ أحد هذه الصفحات بسوء نية وعدم تصديق، فليحاسب ضميره هو. أما أنا فضميري مرتاح تمامًا: كتبت هذا الكتاب لا يدفعني إلا اليقين مما تحققت منه ومحبة المسيح، ورويت وقائع ثابتة وقلت الحقيقة. وأرجو كثيرًا أن يكون الله قد أعدّ مكافأة لا لمن يقرأون هذه القصة فقط، بل قبل كل شيء لمن يتركونها تمسّ قلوبهم ويؤمنون.

> **سياق الراوي: كتاب كُتب للدفاع عن رجل كان ما زال حيًّا**
>
> بلغنا السطر الأخير من عمل سولبيسيوس ساويروس — وهنا حقيقة مذهلة: حين يضع سولبيسيوس قلمه في نهاية هذا الفصل السابع والعشرين، في الأشهر الأولى من سنة **397، كان القديس مارتينوس ما زال حيًّا!**
>
> ولهذا تتكلم عنه هذه الفصول الأخيرة بصيغة الحاضر: لقد وُلد الكتاب دفاعًا حارًّا عن مارتينوس ضد أساقفة بلاد الغال الدنيويين الذين كانوا يحتقرونه في أروقة السلطة. ولاحِظ السخرية الرفيعة في الضربة الأخيرة — وهي جديرة بمحامٍ كبير في قاعات المحاكم: سولبيسيوس لا يكتب اسم أي أسقف حاسد، حتى إذا احتجّ أحدهم علنًا عند قراءة الكتاب، انتهى إلى أن يعلن أمام الجميع أن الوصف ينطبق عليه!

خاتمة الراوي

ما حدث بعد ذلك: موت القديس مارتينوس وأصل الحادي عشر من نوفمبر

لماذا ينتهي كتاب سولبيسيوس ساويروس من دون أن يروي موت القديس مارتينوس؟ لأبسط سبب ممكن: حين اكتملت المخطوطة ومضت إلى بيت ديزيديريوس، في ربيع سنة 397 أو صيفها، كان

مارتينوس ما زال يجوب طرقات بلاد الغال.

لكن نهاية مسيرته كانت على الأبواب — وسولبيسيوس ساويروس نفسه هو من رواها بعد قليل في ثلاث رسائل لا تُنسى (*الرسائل إلى أوسابيوس، وإلى الشماس أوريليوس، وإلى حماته باسولا*).

في آخر أكتوبر أو في الأيام الأولى من نوفمبر من تلك السنة نفسها، **397**، وقد أنهكته السنون كثيرًا، علم مارتينوس أن كهنة رعية **Candes** (اليوم *Candes-Saint-Martin*، حيث يصبّ نهر فيين في اللوار) على خلاف في ما بينهم. ووفاءً لمبدئه ألّا يترك نزاعًا بلا شفاء، انطلق في الحال ليصلح بينهم.

وبعد أن تمكّن من مصالحة إكليروس Candes، وبينما كان يستعد للعودة إلى ديره الحبيب Marmoutier، أحسّ فجأة بقواه تخور، وقد صرعته حمّى شديدة جدًا. فاجتمع تلاميذه حول فراشه غارقين في الدموع: «*يا أبانا، لماذا تتركنا؟ إلى من تكلنا ونحن سنصير يتامى؟ ستنقضّ ذئاب خاطفة على قطيعك!*» وبين رغبته في أن يمضي أخيرًا إلى الله وحزنه على ترك رهبانه بلا حماية، قال مارتينوس حينئذ واحدة من أشهر جمل حياته: **«يا رب، إن كان شعبك ما زال في حاجة إليّ، فأنا لا أرفض التعب (*non recuso laborem*)؛ لتكن مشيئتك.»**

وفي الأيام الأخيرة من الحمّى لم يسمح حتى بأن يوضع تحت جسده فراش بسيط من قش: أصرّ على أن يموت ممددًا على ظهره على الأرض، فوق طبقة من **الرماد وثوب توبة خشن**، قائلًا لتلاميذه: «*لا يليق بالمسيحي أن يموت إلا على الرماد.*» وحين أراد الكهنة أن يقلبوه قليلًا على جنبه ليخففوا آلام جسده، طلب منهم: «*دعوني يا إخوتي، دعوني أواصل النظر إلى السماء لا إلى الأرض، حتى تعتاد روحي منذ الآن الطريق الذي ستسلكه إلى الرب.*» وفي لحظاته الأخيرة تمامًا، وقد أحسّ بحضور الشيطان واقفًا بجانبه، واجهه للمرة الأخيرة: «*ماذا تفعل هنا أيها الوحش القاسي؟ لن تجد فيّ شيئًا لك أيها الملعون: فأنا ذاهب لأستقبلني حضن إبراهيم!*» وهكذا رحل بسلام، في **8 نوفمبر 397**.

ونُقل الجثمان بالقارب صعودًا في نهر اللوار إلى مدينة **تور**، يرافقه حشد لم يُرَ مثله قط — يخبرنا سولبيسيوس أن الرهبان وحدهم كانوا نحو ألفين، فضلًا عن عدد لا يُحصى من النساء المكرَّسات وسكان البلدات والقرى جميعًا، الذين مشوا على الضفتين يرتّلون المزامير عند مرور القارب.



صباح من نوفمبر سنة 397 على نهر اللوار: القارب الذي يحمل جثمان القديس مارتينوس من Candes إلى تور يرافقه على الضفتين آلاف الرهبان وأهل المدن والمشاعل في أيديهم، تحت الضوء الذهبي لـ«صيف القديس مارتينوس».

وجرى الدفن الاحتفالي في تور بعد ثلاثة أيام، في **11 نوفمبر 397**. وذلك التاريخ بالذات — يوم وُضع جسد مارتينوس في التراب على عتبة الشتاء الأوروبي، في الوقت الذي تنتهي فيه أعمال الحقول، ويُذاق النبيذ الجديد في الأقبية، وتُشوى كستناء الموسم — هو الذي انطبع إلى الأبد في ذاكرة أوروبا كلها باسم **عيد القديس مارتينوس**.

عن هذه الطبعة الرقمية المصوّرة

تقدّم هذه الطبعة بالعربية المعاصرة، كاملًا وبصيغة سلسة وقريبة من القارئ، العمل اللاتيني الأصلي الذي كتبه **سولبيسيوس ساويروس**، *De vita beati Martini* (*Patrologia Latina*، المجلد 20، تحقيق J. P. Migne، 1845 / Wikisource).

إلى جانب الصيغة المعاصرة للفصول السبعة والعشرين كلها ولرسالة الإهداء إلى ديزيديريوس، يتضمن الكتاب 14 رسمًا (خريطة تاريخية واحدة و13 لوحة تاريخية) وملاحظات الراوي عن السياق التاريخي والاجتماعي والجغرافي والروحي لأواخر القرن الرابع.

أُنجزت هذه الترجمة العربية عن الطبعة الإنجليزية، *The Life of Saint Martin*، وهي نفسها مُعدّة عن الطبعة البرتغالية المعاصرة *A Vida de São Martinho*، وتُنشر بالرخصة نفسها.

رخصة النص المصدر في Wikisource: Creative Commons Attribution-ShareAlike 3.0 Unported / GNU FDL.